انفاس

مجلة فكرية عربية مغربية

- الصحافة الوطنية والقضايا العربية
- ملاحظات في « الازمة الاقتصادية »
- ما هو المضمون الحقيقي للاتحاد الثلاثي
- الوضع الطبقي في الجزائر
- حوار حول « الحركة الوطنية »
- الشعر سلاح لامرئي

العدد 5
كتوبر 1971
1,50

انفــــاس

مجلــة فكريــة عربيــة مغربيــة (تصدر شهريـا)

العنوان : ٤ شارع باستور ـ الرباط ـ المغرب
ح. ب ٧٩ ٩٨٩ الهاتف ٩٢ـ٢٣٥
المسؤول : عبد اللطيف اللعبي

الافتتاحيــة	الصحافة الوطنية والقضايا العربية	انفــاس	3
قضايـا وطنية	ملاحظات في «الازمة الاقتصادية»	على الحمراوي	6
قضايا عربية	● ما هو المضمون الحقيقي للاتحاد الثلاثي ● الوضع الطبقي في الجزائـر (١)	«الهدف» رسالة من باريس	16 23
شؤون فكريـة	حوار حول «الحركة الوطنية» ● من اجل حوار حول «الحركة الوطنية» ● ملاحظات حول مقال الخطيب ● ملاحظات بخصوص تاريخ النضال التحرري في المغرب	 ابراهيم الخطيب علي الحمراوي سعيد البربوشي	 31 36 38
ادب	الشعر سلاح لامرئي ، قراءة جديدة في شعر البياتي	عبد العزيز شرف	43
مراسلات	حول اضراب عمال ميبـلادن	أ. هـ	61
بريـد القراء	نقد ، اقتراحات ، تضامن ، تحيات		62

السنة الثانية ، العدد الخامس اكتوبـر ١٩٧١

مطبعة التومي ـ الرباط

الدولة البيروقراطي لفائدة النشاط الحر للبورجوازية .

وسرعان ما تداركت صحافتنا «الوطنية» الموقف بعد اتضاح هذا الاتجاه في انظمة بورجوازية الدولة ، اذ صارت تساند النظام الناصري (بعد بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذي يركز على ضرورة «توطيد الجبهة الداخلية» بآفاق بورجوازية واضحة) ، كما سارعت الصحافة الوطنية الى مساندة المقاومة الفلسطينية طبعا ضمن حدود اضعف الايمان (بعض التبرعات) ودون اي خط للنضال الجماهيري الفعلي للمساندة ، بحكم موقفها الانتظاري الهامشي من المسائل الوطنية ذاتها .

ونتضح لفظية المساندة التي تمنحها الصحافة «الوطنية للمقاومة» في مساندتها الحماسية لكل التحولات اليمينية الاساسية التي عرفتها انظمة بورجوازية الدولة والتي يتحدد اتجاهها العام في كونها تكرس سلطة اكثر الفئات الطبقية والسياسية انغماسا في طريق الاستسلام المكشوف وكونها حسمت تناقضات بورجوازية الدولة باتجاه خيانة المقاومة الفلسطينية التي تعرضت للمذابح معزولة ووحيدة في مواجهة طاحون الابادة الهاشمي : انقلاب حافظ الاسد في سوريا ، تصفية الجناح السوفياتي المتغلق وضمن نفس العملية تصفية عدد كبير من الاطارات الوطنية والتقدمية في الجيش والحزب في مصر ، واخيرا مجازر الخرطوم ضد الحزب الشيوعي السوداني .

ومسألة السودان تكتسي اهمية قصوى سواء فيما يخص فضح تناقضات بورجوازية الدولة او فيما يخص فضح معادلاتها الوحشية للحركة التقدمية والجماهير العربية المناضلة .

لقد كان بيان الحكم الديمقراطي التقدمي في السودان يرتكز على خمسة بنود اساسية :

١ ـ حل المنظمات السياسية الرجعية والبيروقراطية

٢ ـ اطلاق الحريات النقابية والسياسية والتنظيمية للجماهير الكادحة .

٣ ـ الدعم المطلق المادي والسياسي الفعلي للمقاومة الفلسطينية (باللقاء المطلق مع كل مواقفها السياسية وعلى رأسها رفض الحلول السلمية)

٤ ـ تشكيل جبهة وطنية شعبية وتقدمية كعماد اساسي للسلطة الجديدة .

٥ ـ الاستقلال الذاتي لجنوب السودان ضمن الحفاظ على وحدة الشعب السوداني .

لكن الذي يهم البورجوازية المركنتيلية هي وحدة السوق واكبر وحدة للسوق مهما تطلب ذلك من قمع واضطهاد موجه ضد القوى الحية المناضلة في الوطن العربي ، ضد القوى الصامدة ، والرافضة للاستسلام والنابعة من اعماق الجماهير المضطهدة بدعوى «دعم المجهود الحربي» في ظل استراتيجية تتنافى جوهريا والعمل الوطني من اجل تحقيق النصر والتحرير بقوة السلاح والجماهير .

واذ ساند الحزب الشيوعي السوداني الضباط القائمين بالانقلاب تمشيا مع خطه الوطني التقدمي (دون ان يكون دبره) ، استغل نظام النميري هذه المساندة ليذبح بصورة شاملة آلاف المناضلين الطليعيين ، الاف

العناصر الحية الصلبة التي افرزها الشعب السوداني وطبقاته الكادحة المضطهدة اساسا لتتصدر كفاحه ضد الاستغلال والقمع والاستسلام اللاوطني .

لكن الصحافة الوطنية صمتت عن هذه المجازر الشنيعة رغم ما تكتبه من مقالات في مضمار الحسناء «الحرية» والحق المقدس في الحريات العامة الخ ... وكانها لا ترى في تلك المجازر الا امواتا اعترضوا وحدة شبكة السوق فدمرهم قطار البضائع المستوردة او المبتزة من الشعب، قطار الاتحاد الثلاثي الذي لابد في راي البورجوازية ان يكون رباعيا ،

وفي نفس السياق تساند الصحافة «توطيد» اتحاد الامارات في الخليج العربي الذي يقوم تحت اشراف الرجعية السعودية المعروفة ارتباطاتها الوطيدة بالامبريالية الامريكية خاصة . ولم يأت هذا الاتحاد بايحاء من رغبة مجردة وخالصة في «اتحاد العرب كما تحاول ان توهمنا بذلك الصحافة «الوطنية» وانما بايحاء من رغبة سياسية وطبقية في «قمع العرب» الكادحين والمحرومين». ان اتحاد الامارات يعتبر اولا واخيرا عملية توحيد صفوف وتجميع قوى الرجعية العميلة لمواجهة وتطويق وخنق المد الثوري في ظفار والخليج العربي بقيادة الجبهتين الشعبيتين لتحرير الخليج العربي المحتل (ظفار وعمان).

وسواء تعلق الامر بالاتحاد الثلاثي الذي نشأ على ارضية قوامها قمع الجماهير الشعبية والحركة التقدمية من جهة ، والمضي قدما نحو الاستسلام النهائي والتخلي عن المقاومة الفلسطينية من جهة ثانية ، ام تعلق الامر باتحاد الامارات الرجعية ، فمن الواضح ان من قبيل البلاهة او الديماغوجية مناقشتها من زاوية كونها او عدم كونها «خطوة الى الامام على طريق الوحدة الكبرى»

ذلك انه في ظل المعطيات الطبقية الحالية في الوطن العربي ، وفي ظل المأزق الذي بلغته القيادات الطبقية الرجعية القديمة والرجعية الجديدة فيما يخص التحرير من الصهيونية والامبريالية ، صار واضحا ان تقدم النضالات الجماهيرية والقوى الثورية في الاقطار العربية وفي طليعتها تقدم المقاومة الفلسطينية هي الخطوات الفعلية على طريق الوحدة والتحرر الوطني والطبقي معا ، بقيادة اكثر الطبقات رزوحا تحت وطأة الاستغلال : العمال والفلاحين الفقراء .

لكن هذا الافق الجماهيري الثوري هو الذي تخافه صحافتنا الوطنية بالذات ، اذ من شانه ان يتجاوز مصالحها الطبقية وينزع منها «تلك القيادة التاريخية» للحركة الوطنية التي تتباهى بتزعمها لها رغم ان المطاف استقر بها نهائيا في مقعد الانتظار على هامش الصراع الطبقي ورغم ما يؤخذ عليها من مساومات ماضية على حساب تضحيات الجماهير الشعبية .

انفـــاس



ملاحظات في «الازمة الاقتصادية»

على الحمراوي

اذا كنا بغير حاجة الى التوكيد على أن المفاهيم الاصلاحية السياسية ، ارتكزت على رؤية ايديولوجية في التحليل الاقتصادى ، فاننا بحاجة الى القـول ،أن المقالة التي نقدمها الى القارىء ، رغم قصورها فــي عرض الواقعة الاقتصادية بترابط شامل مع تطـورات الصراع الطبقي ، ودور الحركة الجماهيرية ، اذ ان هذا المجهود هـو بالضرورة طويـل النفس، فـان الشـيء الجوهري الذي حاول الاخ الحمراوي ان يقدمه ، خطوة اولى في طريق هذا المجهود الخلفية الايديولوجية والسياسية التي ينطلق منها في تحديد مفهوم الازمــة الاقتصادية التي يعيشها النظام القائم ، وذلك بربطها ـ اساسا ـ بالواقع الطبقي، وبكفاحية الجماهير كأداة ثورية في تغيير هذا الواقع .

ان هذه الرؤية التي تنطلق منها المقالة تنـاقض في المنهج وفي النتائج المفاهيم التكنوقراطية التــي تحتوي كل التحاليل الاقتصادية التي تعج بها السوق الوطنية ·

اننا نعتبر هذه الخطوة بداية لنقاش « نرجوا أن يستمر نحو استشفاف كل ملامح الصراع الطبقـي والوطني في بلادنا » على حد تعبير الاخ الحمراوي ·

انفـاس

١ ـ بعض المفاهيم الخاطئة

ان مفهوم الازمة الاقتصادية في بلادنا عــبـارة عن ثوب فضفاض ، يستر مجموعة مــن المغالطــات الايديولوجية لها بالطبع في النهاية تبعات سياسيــة والمغالطة الاساسية تكمن عادة في طمس مسألة الصراع الطبقي ، ودور الحركة الجماهيرية ؛ ومــن هنا تؤدي مختلف التحاليل المعتادة في الموضوع الــى اعطاء لائحة من الاصلاحات أو من « البرامج الدنيا » مطلوب انجازها « لانقاذ البلاد من الكــارثــة » أو « لاقتلاعها من مستنقع التخلف »·

ولابد من التمييز بين مستويين فــي طـريقــة ومضمون التحليل الاقتصادي «اللاطبقي» أي الــذي يترك أوضاع الطبقات جانبا ، ليهتم بتحليل « الظواهر العامة »·

● ١ المستوى الاول يتمثل في مختلف المنظورات الامبريالية المستوردة ، والمرتكز الاساسي لهذا التحليل هو ستر الدور التخريبي الذي تلعبه المصالح الامبريالية والاستعمارية في البلاد ، والبحث في نهاية المطاف عن وسائل توسيعها عن طريق الالحاح على الحاجة الماسة الى رؤوس الاموال والى استيراد « وسائل الانتاج » قصد ضمان تناسق في السباق بين « التضخم الديمغرافي » من جهة و«النمو العام للانتاج الاجمالي » من جهة ثانية ·وبعيدا عن أي تحليل لعلاقات المبادلة الاستغلالية بين الامبريالية وبلادنا ، أو للاستنزاف المتصاعد لخيراتها ، يركز التحليل الامبريالي في النهاية على ضرورة تخطيط « التنمية » في ظل التبعية له أي ضرورة تنميةمصالحه ومصالح خادميه ، مؤكدا من جهة أخرى على الحاجة الملحة الى «الاطر المكفوءة» التييناط بها فى الواقع تنظيم اجهزة متنوعة لتصعيد الاستغلال. وعندما يواجه التحليل الامبريالي بأسئلة تتعلق بالتفاقم الملموس لظواهر يعترف بذاته بضرورة محاربتها مثل تضخم البطالة وتفاقم العجز التجاري وكثرة الديون الخ ...

يلجئ الى تصوير خرافة « الحلقة المفرغة » التي تدور فيها « البلدان المتخلفة » والتي مؤداها أن النمو الديمغرافي يؤدي الى تفاقم الفقر الامر الذي يؤدي الى اضعاف القدرة الشرائية ، وأن ضعف القدرة الشرائية يجعل مستحيلا بناء الصناعة الداخلية في شروط المنافسة الخارجية الخ....

ومن الواضح ان «العلم الاقتصادي الامبريالي تحول الى دعاية سياسية مصلحية هدفها تركيز ما هو قائم من المصالح الاستغلالية بواسطة التضليل ·

● ٢ ـ المستوى الثاني يتجلى في التحليل الاصلاحي للوضع الاقتصادي . وهنا يجب تسجيل ملاحظة أساسية وهي أن الاساس الطبقي المتردد في محاربة الاميريالية يجعل منظري البورجوازيةالمتوسطة **والصغرى عاجزين موضوعيا عن القطيعة التامة مع المفاهيم الرأسمالية بل وبعض المفاهيم التي لا تخرج مطلقا عن حلبة الاستغلال الامبريالي رغم استنكارهم له.** ويرجع ذلك الى نقطتين اساسيتين وهما: اولا الطبيعة المركنتلية والحجم المحدود للبورجوازية المتوسطة ، وحتمية تبعية القيادات البورجوازية الصغرى للبورجوازية في غياب العنصر الجماهيري الحاسم من جهة ، وثانيا البعد المحدود لبرامج الطبقتين وعجزهما عن الخروج من سيطرة السوق الرأسمالية العالمية، ومطمحهما في ضمان تفوقهما على الجماهير الكادحة واستغلالهما لها بصفة دائمة (كما تدل على ذلك تجارب الثورات البورجوازية في البلدان العربية ذات انظمة بورجوازية الدولة والمتجهة نحو الليبرالية والمبادرة الفردية .)

وينتج عن هذه الطبيعة الطبقية عداء المنظرين المعنيين للماركسية ـ اللينينية او افراغها من كل محتوى جماهيري ، لانها سلاح خطير من شانه فضحالتناقضات داخل صفوف الشعب المستغل (بفتح الغين) والغاء جزء هام من ذلك الدور الحساس المزعوم المنوط « بالاطارات المخلصة » ذات التكوين التقنوقراطي البحث · ذلك أن الماركسية ـ اللنينية ببعد نظرها التاريخي نظرية تعي من البدأ ضرورة الاستمرار في الصراع الطبقي واطلاق المبادرة المنظمة

للعمال والفلاحين الفقراء حتى يبنوا الاشتراكية الفعلية : اشتراكية من الجماهير واليها ، اشتراكية تلغي كل الامتيازات وأشكال الاستغلال ٠

وعند احتقار الجماهير الشعبية ونزع كل دور خلاق وبناء منها تلجؤ النظريات الاصلاحية الى محاولة فرض الوصاية التقنوقراطية عليها ٠

والاتجاه التقنوقراطي هذا سائد في الحركة الاصلاحية ويكمن افلاسه الاساسي في بقائه معلقا دون التطور التاريخي للصراع الطبقي ودون الحركة الجماهيرية الى درجة أنهذه الحركة ذاتها تعتبر بالنسبة اليه شبحا مخيفا يحمل الفوضى والتخريب وعدم الاستقرار لا الاساس الموضوعي الوحيد والاساسي لايجاد ظروف التغيير الجذري ٠

حقا أن التحاليل التقنوقراطية تطنب في تصوير جمود الانتاج وسوء توزيع الدخل القومي وضعف الاستثمارات وانتشار البطالة الخ ٠٠٠ وهمها في ذلك طرح لوحات مرموقة عن الازمة الاقتصادية وعن الظواهر الغير السليمة التي تعفن الاوضاع ٠ لكنها في النهاية لا تعدو أن تستنتج خلاصة واهية « لاطبقية» مننوع « أن البلاد في طريق التخلف »٠

وعلى نقيض هذه الصورة المتعفنة التيبتقنون وصفها الى حدما يتوصل التقنوراطيون الى تحديد أرقام يجب تطبيقها للخروج من التخلف والى تصوير التناسق الامثل للصناعة المنسجمة» الكفيلة وحدها باخراجنا من التخلف » :

ومثال هذه الارقام قولهم بأن من اللازم استثمار ٢٠٪ من الدخل القومي سنويا اذا اردنا أن لا تتفاقم اوضاع التّخلف ٠ وتبقى هذه الخلاصة التقنية بطبيعة الحال غير ذات جدوى ما دامت مطروحة في ظل نفس المفاهيم البيرقراطية ونفس المفهوم عن « الدور الايجابي الذي يمكن أن تلعبه المساعدة التقنية الغربية شريطة ان تراقب» ، ونفس المفهوم عن استيراد وسائل الانتاج الحديثة والاستجابة لشروط المنافسة مع الانتاج الغربي ٠ وهي بذات الوقت خلاصة مثالية تماما لانها توضع خارج الاطار التاريخي لتطور الصراع الجماهيري ، وخارج أي دور حيوي تنظيميا وسياسيا للطبقة العاملة ، وبالتالي خارج موقف الامبريالية من أوضاع كهذه (خاصة حصارها الاقتصادي ضدها)٠

ان مفاهيم وخلاصات التنقنوقراطيين في تحاليلهم تجعلهم متوجهين في النهاية بنوع من «الموعظ المسؤول» للاوساط المعينة كي تضع حدا لتأزم الاوضاعوالا فلتستدعيهم ليعطوها أحسن مثال في ادارة شؤون استغلال الجماهير الشعبية وابتزاز فائض القيمة الذي تنتجه ، مع تفادي السلوك الطفيلي للطبقة الحاكمة الذي يعجل بنمو الحركة الجماهيرية٠

ومثال « الاصلاح الزراعي » كما يفهمه التقنوقراطيون ساطع في المجال ايضا .

فهو يبقى من حيث مضمونه اصلاحا زراعيا لفائدة البورجوازية المتوسطة باتجاه احتلالها ضيعات المعمرين القدامي والجدد ، مع أنه لا يضمن بتاتا امكانية تغيير الطبيعة المركنتيلية للطبقة وامكانية توجيهها نحو المساهمة في البناء الصناعي السريع والمتناسق كما يصوره التقنوقراطيون ، كما لا يضمن بتاتا اقبالها السريع على تحديث وسائل الانتاج وحل

أزمة العجز الغذائي وضمان الاكتفاء الذاتي الوطني ،

وهو - « الاصلاح الزراعي الاصلاحي » - **مطروح في اطار جامد بطريقة توزيع الارض من أعلى ، بعد نجاح اسلوب المطالبة والمفاوضة ولذا فانه ينفي بتاتا ديناميكية الجماهير الفلاحية الفقيرة وقدرتها على المبادرة والابتكار خوفا من امتدادها الى ما لا يرضي البورجوازية من وسائل وأشكال جماعية في استغلال الارض وتنظيم المبادلات التجارية (مرورا بالغاء دور السماسرة والوسطاء)٠**

ورغم أن التحريفية حاولت تجاوز المفاهيم التقنوراطية عن طريق صبغ برامج « التحرير » بلهجة « حربية » تضمنت كلمات « الاستراتيجية » و« التاكتيك» والتحالفات المؤقتة فانها سقطت بحكم نهجها نفس الخط السياسي الاصلاحي في تبعية جوهرية للتقنوقراطية والتجريبية ، وسقطت الى أكثر من ذلك عندما طرحت مثلا مشروع « برنامج الحد الادنى » سنة ١٩٦٥ ، والذي يمثل تعبيرا عميقا عن واقع اقتصاديتها وطابعها البورجوازي ، ودخولها أيضا في نفس مازق التحاليل الاصلاحية : بقاؤها دون التطور التاريخي للصراع الطبقي وللحركة الجماهيرية الجذرية ٠

ان هدفنا الاساسي من تسجيل الملاحظات التي تلي ، في موضوع الاقتصاد ، هي ابراز الجوانب الاساسية لطبيعة المصالح الاستعمارية والرجعية والتاكيد على المأزق التاريخي لهذه البنية وحتمية افرازها حركة جماهيرية ديمقراطية ذات بعد اشتراكي ، تمثل عماد البديل الثوري لعلاقات الاستغلال القائمة ٠ ولا ندعي مطلقا الاحاطة بجميع جوانب المسالة في هذا المقام ، رغم وعينا التام بضرورة توفر تحليل طبقي شامل لبلادنا يوضح بالعمق المطلوب تطورات الماضي وافاق المستقبل وكل مضامين الحل الثوري للازمة الدائمة التي تعيشها الهياكل الحالية ٠
ولذا فاننا نعتبر هذه الملاحظات مساهمة بسيطة جدا **نرجو أن تليها مساهمات أخرى دائبة من أجل استشفاف كل ملامح الصراع الطبقي في بلادنا .**

٢ - البنية الاستعمارية

من وجهة نظر علاقات الانتاج خلق الاستعمار بجوار المجتمع المغربي « التقليدي » الشبه اقطاعي والقبلي قطاعا متقدما من حيث وسائل الانتاج شمل المعادن والصناعات التحويلية الخفيفة(الغذائيةخاصة) وشمل أخصب الاراضي الفلاحية ٠ وقد اتسم هذا القطاع منذ البداية بتمركز شديد للرساميل بين أيدي الاحتكارات والابناك الامبريالية الكبرى ٠ ونتيجة هذه التبعية ليست فقط اختلاس الخيرات المغربية لسد حاجيات السوق الامبريالية (معادن ، مواد غذائية) أو ابتزاز فائض القيمة وفائض الانتاج الهائل وتطعيم الجيوب الامبريالية به في الخارج وانما أيضا ادخال الاقتصاد الوطني ضمن « التوزيع الامبريالي للتخصصات » أي حرمانه من صناعة وسائل الانتاج وابقاؤه سوقا لاستيرادها بالاضافة الى استيراد بضائع الاستهلاك ذاتها ٠ ومن جهة أخرى اعتمد هذا القطاع منذ البداية على تدخل الدولة لوضع القواعد التحتية والتقنية الضرورية للاستغلال المنهجي (طرق، سكك حديدية ، مصادر الطاقة)٠ وقد مثلت مختلف هذه المنجزات ذاتها مجالا حيويا لنشاط مقاولات البناء والمؤسسات المالية الامبريالية على حساب الجماهير

التي تنظم الدولة ارغامها على تمويلها بالضرائب المختلفة خاصة منها « الغير المباشرة ». ومن مفعول **ديناميكية هذا القطاع تفقير اغلب الشعب المغربي ، والاسراع بتمركز ملكية وساءل الانتاج والارض خاصة وجر مجموعة من المغاربة لممارسة التسلط الاقطاعي او التبرجز تجاريا وزراعيا وعن طريق السمسرة والوساطة .**

ومن وجهة نظر نظام المبادلات تعددت وتركزت الهياكل الاستيرادية وتوسعت شبكة السوق الداخلية وانتشر النظام النقدي تحت اشراف الاحتكارات الامبريالية وبالتعاون مع الكمبرادوريين (الوسطاء). وما لبث الاستعمار ان ضاعف عشرات المرات حجم وعدد المواد المستوردة منه مستعملا في ذلك كل وسائل الدعاية والاغراء . وقد ادت هذه الهجمة الى تفسخ القسمة الاجتماعية للعمل الموجودة من ذي قبل والمتسمة بانغلاقها في حدود محلية وضعف قابليتها للتبادل النقدي .

هكذا صاحب عمليات النزع العنيف للملكية و «بلترة» جموع عريضة من الجماهير الفلاحية والحرفية اي تحويلها الى ابرلتاريا او عاطلين توسع السوق الداخلية واحتلال الامبريالية لها . وقد تعامل التراكم البدائي الاستعماري والكمبرادوري للرأسمال والتمركز الاقطاعي لملكية الارض مع توسيع نظام المبادلات والنظام النقدي في عملية جدلية مؤداها تعميق التمايز الطبقي وتصعيد الصراع الطبقي والنضال الوطني بموازاة استنزاف وتشريد الشعب .

وزاد مفعول العملية سرعة تسلط جهاز الدولة الاستعماري ونظام الضرائب ومختلف المتاعب المادية والسياسية النائجة عن قيام الاستعمار بعلف الاقطاعية وتخويلها كل السلط ضد الشعب .

ونفس العملية الجدلية هذه ادت بالنسبة للبورجوازية التجارية الى ضرورة تكيفها مع المبادلات الجديدة فنتج عن ذلك توسعها الكمي من جهة ، ودخول الجناح الاعلى منها رأس هرم الاستيراد والتصدير الى جانب الاحتكارات الاستعماريةمن جهة ثانية بينما قضى على بورجوازية الصناعة التقليدية بالتدهور او الاكتفاء بالمتحف الامر الذي يعتبر طمسا نهائيا لجنين التطور الرأسمالي المستقل لها. (غير ان مشاكل البورجوازية التجارية هذه مع الاحتكارات ، وخاصة تشبتها بوحدة السوق الوطنية على اثر صدور الظهير البربري التقسيمي ما لبث ان جعلها تطمح وتناضل من اجل ازالة السلطات الاجنبية عن البلاد.)

وسرعان ما تعضدت صفوف الطبقات الكادحة (عمال ، بورجوازيون صغار، فلاحون فقراء وبدون ارض عاطلون) وصارت اوضاعها مزرية حقا ، فاندفعت تحارب الاستغلال الاستعماري في مدثوري عاصف .

غير ان عدم اكتمال الوعي الثوري لديها ، والطبيعة الوسطية لقيادة السياسة في المعركة سمحت لتشكيلية رجعية مخلصة للاستعمار ومدينة له

بصعودها، بل وسمحت للاستعمار نفسه، بالقيام بتراجع شكلي لصالح بقاء مصالحه الاساسية . ويمكن الجزم بان التشكيلة الرجعية الجديدة المطروح عليها حماية تلك المصالح احتاجت للمرحلة الممتدة من ١٩٥٦ الى ١٩٦٥ لتقوم بتجميع قواها .

٣ ـ صعود الطبقة السائدة (١٩٥٦ ١٩٦٥

ترعرت ضمن البنية الاستعمارية فئة من المغاربة مرتبطة بها عضويا ومصلحيا ، مثلت بذات الوقت الجنين المادي والسياسي للطبقة السائدة (كان جمهو رالطبقة يمثل بذات الوقت طليعتها السياسية) . ويمكن التمييز داخل تلك الاولغاشيابين :

ـ الارسطقراطية الزراعية التقليدية

ـ المعمرون المغاربة ، ويمتازون بالقلة والديناميكية

ـ البورجوازية الكميرادورية التي سمح لها الاستعمار بالمساهمة في مشاريع تجارية وصناعية .

وغالبا ما نجد هذه الفئات مختلطة عضويا .

وبمجرد ما حملها الاستعمار مسؤلية حماية مصالحه الاساسية تحالفت هذه الاليغارشيا يمينا مع اكثر الاقطاعيين اغراقا في الرجعية وخيانة الوطن ويسارا مع قيادة الحركة الوطنية بما فيها جناحها التقدمي انذاك .

ولكن للحيلولة دون امتداد الحركة الجماهير او القيادات الاصلاحية الى المس بالمصالح الامبريالية ـ الاقطاعية ـ الكمبرادورية ركزت الاولغارشيا جهدها الرئيسي على بناء اجهزة دكتاتوريتها ، وتحت رعاية الامبريالية .

● وعندما انفردت بالسلطة سنة ١٩٦٠ ، بدأ جهاز الدولة واضح المهام . فبالاضافة الى القمع انيط به:

الاستمرار في بناء القواعد التحتية للاستغلال الامبريالي والطبقي من طرق وطاقة وغيرها .

ـ انجاز عدد من المشاريع التجارية والصناعية واستثمار جزء من الاراضي المسترجعة قصد ملء ثغرات الطبقات الصاعدة والاسراع بتقويتها خاصة في جناحها البيروقراطي البورجوازي .

ـ بناء جهاز اداري ضخم نسبيا يقوم باستيعاب جمهور من الموظفين المغاربة محل الفرنسيين ، ويكون مجالا لجمع الثروات بالنسبة للفئات البيروقراطية عن طريق الاختلاس والرشوة .

● **على الصعيد الجماهيري بدأت تنكشف كل الاوهام الاصلاحية بعد ان وضع الاصلاح الزراعي جانبا، وتم عزل البورجوازية الاصلاحية بينما استمرت اوضاع الجماهير الكادحة في التفاقم .**

وقد واجهت الطبقة السائدة خنق الجماهير بعدة خطط منها :

ـالتطويق والقمع

ـ تنظيم حملة الدستور ـ البرلمان وجر الاصلاحية ضمنها

ـ القيام بمشاريع واسعة النطاق بهدف تنفيس ازمة البطالة والفقر ، وبهدف توسيع شبكة الطرق

والفنونات ، وان كان طابع توزيع الصدقات يغلب عليها خصوصا وان الحبوب والقروض الامبريالية الامريكية هي التي ضمنت تمويلها . واهم هذه العمليات «الانعاش الوطني » ، بالاضافة الى قرار الغاء ضريبة الترتيب ذات الطابع المجحف .

– تضخيم الادارات وأجهزة الدولة المختلفة ، وتوسيع نشاط المصالح الاجتماعية: التعليم والصحة مثلا بشكل ملموس ومحدود في نفس الوقت بهدف « ذر الغبار في العيون » وتمشيا مع نظرية « النفخ بالاوراق المالية في الاقتصاد »وتوزيع المداخيل ، و «رفع مستوى الاستهلاك » اي في الواقع توسيع قطاع الخدمات بشكل لا يتناسب مع وضعية القطاعات المنتجة (صناعة – فلاحة) ، وتكريس تبعية جهاز الدولة لقروض الامبريالية ، وتصعيد عداء الجهاز للجماهير الشعبية بحكم تعطشه المتزايد للضرائب وحاجته للقمع .

● **على صعيد اختياراتها الاساسية ، بدأت الطبقة الصاعدة ممثلة سياسيا في جهاز الدولة خاصة تتوصل الى تحديد وصوغ خط اقتصادي لا يختلف عن اختيارات المعمرين القادمي وساعدت على وضعه هيئات امبريالية مثل البنك الدولي التابع ماليا (بمقدار وافر) وتوجيهيا للامبريالية الامريكية . ويتمشى هذا الخط تماما مع متطلبات الاستعمار الجديد الذي يتشبت بجميع مواقعه المالية والسياسية القديمة ويقبل فقط بالاعتماد على عناصر محلية لتقوم بنفس دور المعمرين الاجانب .**

ونجد الملامح الاساسية لهذا الخط واضحة في اعداد التصميم الثلاثي :

– تركيز الهجوم على الفلاحة خاصة في الاراضي المسقية والخصبة ضمن خطة تحديث «وسائل الانتاج» التي تتحمل عبئها المالي خزينة الدولة المعتمدة على الديون والضرائب والتي تخول المعمرين المغاربة والبيروقراطية العليا والاقطاعيين «المستعمرين» صلاحية مركزة ملكية الارض ووسائل الانتاج .

– نهج سياسة سياحية تهدف الى انعاش البناء والعقار والربح السهل للكمبرادوريين و «اللمبن – بورجوازية» عامة مع مسايرة مطامح الابناك الامبريالية في توسيع نشاطها

– تكوين الاطر بمعنى اقتناء فئة من الاعوان الطائعين المرشحين لاحتلال مناصب مرموقة ضمن بيروقراطية الدولة .

٤ – استمرار الكفاح الوطني

في خلال تسع سنوات مضت على «الاستقلال ، لم يتحقق للجماهير الشعبية اي من مطامحها في التحرر الوطني الديمقراطي كما اتضح مما سبق .وعلى النقيض تكرس التسلط الاقطاعي ، وازداد المعمرون الجدد شراسة وبلغت الضرائب والعسف البيروقراطي والنهب حدودا قصوى . فالطبقة العاملة لم تحصل من الاوساط الرأسمالية على اي مكاسب وظلت عرضة للطرد الجماعي حسب تماوجات اوضاع الصناعة الجامدة والسوق النقدية المتضخمة ، والبطالة تفاقمت بشكل ضخم

بفعل افلاس الفلاحين وبفعل النمو الديمغرافي الامر الذي جعل المدن تنتفخ بمئات الآلاف من الشباب العاطل ، وفي مقدمته الشباب المتعلم الذي ادت به السياسة الديماغوجية في «تعميم التعليم» الى مازق مثير .

وبذات الوقت كانت من النتائج الاولى لسياسة الطبقة الحاكمة المتسرعة الى اثبات مواقعها في النظام دخول جهاز الدولة في ازمة مالية وعجز خانقين مصحوبين بتدين خطير وارتفاع خيالي للضرائب وثمن العيش .

ورغم تخلف الاصلاحية ادت هذه الاوضاع الى التحام الجماهير الشعبية الحضرية خاصة (عمال شباب عاطلون بورجوازية صغرى) في تحالف ثوري عفوى مثلث انتفاضة مارس تجسيده النضالي الجذري وقد مثل هذا التحرك الثوري امتدادا للكفاح الوطني كمامثل من الوجهة الاقتصادية ثورة على البنية التبعية القائمة من جانب نقيضها الاساسي وضحيتها: الجماهير الشعبية الكادحة والمحرومة .

٥ ـ التوسع الشامل للطبقة السائدة (١٩٦٥ ...)

في هذه المرحلة ، حققت الطبقة السائدة تقدما ملموسا في الاغتناء والتوسع نتيجة وضع وتطبيق التصميمين الثلاثي والخماسي .

فعلى صعيد الفلاحة ، القاعدة الاساسية للطبقة، يتوسع المعمرون الجدد محل القدامى اعتمادا على الدعم المادي والتشريعي من جانب الدولة . هكذا تم تخصيص ميزانية ضخمة لبناء الاستثمارات الاساسية الجديدة على حساب الجماهير (السدود والقنوات وغيرها) يهدف بت جذور الطبقة السائدة حيثما كانت ارض خصبة وقابلة للري. كما تم ترسيم مبدأ نزع الملكية ممن لا يسايرون الاساليب الحديثة(قانون الاستثمارات).

وقد نهجت الطبقة خط تكثيف الزراعات الموجهة للتصدير وفقا لارتباطاتها مع الامبريالية وسعيا وراء التخفيف من عجز ميزانها التجاري (وذلك امر لم تتوصل اليه) ، واستحدثت حقا زراعات جديدة مثل الشمندر ومصانع السكر لكن بنفس مفهومها الاستغلالي العادي للجماهير .ويجري العمل منذ التصميم الخماسي على الامتداد الى الاراضي البور لتحديث وسائل الانتاج فيها بنفس المفهوم الرجعي للطبقة السائدة والذي من شانه ان يؤدي الى «طرد مجموع الفلاحين من البادية لتحل محلهم مجموعة من العصريين . (انظر المقال حول الفلاحة ، العدد الاول من «انفاس»). لكن اتساع «الموجة العصرية» هذه ترتطم بواقع احتداد الصراع الطبقي في المناطق العصرية ذاتها كما تدل على ذلك فاجعة اولاد خليفة من جهة وفي المناطق الجبلية والبور ذات اساليب الانتاج المتخلفة ، بحكم افلاس الفلاحين الفقراء تحت وطأة عسف ارباب الارض والطبيعة السمسرية لعلاقات السوق الزراعية .

وتوجه الطبقة السائدة جزءا من فائض الانتاج الزراعي ومن مرتباتها ومختلساتها الى العقاريات في المدن (بناء ، فنادق) والى ابناك اوربا ، والى مختلف مظاهر البذخ. ونجد قسط البناء والتجارة وبصورة عامة قسط قطاع الخدمات في الانتاج الاجمالي يتزايد باستمرار بنفس اتجاه تكريس السيطرة الامبريالية واعاقة نمو وسائل الانتاج مع مركزة الثروة في يد الطبقة السائدة ، وتوسيع مجال نشاط الرأسماليين المتجولين ومختلف السماسرة والمضاربين رواد بورصة البيضاء ، وبورصات اوربا ايضا .

ومن مكتسبات الطبقة كذلك ايجاد تجهيز سياحي فاخر وتمركز بعض الرساميل الصناعية (كالنسيج) في يد احتكاراتها الكمبرادورية على حساب الرأسمال الوطني المتوسط .ويظهر حاليا ان الدولة تبحث لها عن امكانيات ايجاد صناعات خفيفة تقوم بتصبير وتحويل المواد الزراعية قبل تصديرها قصد مسايرة متطلبات السوق الخارجية (الاوربية خاصة) وقصد ايجاد مجال جديد لنشاط بعض فئات الطبقة السائدة .

وعلى صعيد العلاقات مع الخارج قامت الدولة بعده خطوات تشجع تصدير المواد الخام ءالمعدنية خاصة)وتسهل الاستيراد بهدف تنشيط الكمبرادوريين الوسطاء، وتزويد الطبقة السائدة بحاجياتها الاستهلاكية (بما فيها الغذائية) والتجهيزية (في اطار خطة تحديث وسائل الانتاج) ، وفتح باب السوق الوطنية اكثر فاكثر للبضائع المستوردة من الامبريالية ، (مثال ذلك الاتفاقية مع السوق الاوربية المشتركة ، وتحفيض او بالاحرى حدف الضريبة على تصدير المعادن) .

٦ ـ ملامح الازمة الحالية

ان نمو الطبقة السائدة يسير بموازاة مع تعميق تناقضات اساسية مرجعها المأزق التاريخي للنظام . انها ازمة الطبقات العقارية التي تنهج طريقا رأسماليا ممسوخا وتعتمد على المصالح الامبريالية وتحميها . وقد بلغت تناقضات البنية القائمة مستوى ينذر الطبقة بتصاعد الحركة الجماهيرية واتساعها كما يهدد وحدة الطبقة ذاتها بالتفسخ .

فمن الناحية الزراعية يؤدي خط الطبقة الى تفاقم العجز الغذائي بشكل هائل ، بينما تتعرض الجماهير الفلاحية الفقيرةوالمتوسطة للاضطهاد ونزع الملكية وتفاقم ظروفها المعاشية.

وبدأت ترتفع نضاليتها بفعل ازدياد التمايز الطبقي وضوحا (اضطرار اغلب الفلاحين لممارسة عمل مأجور اضافي،او اكتراء الارض ، تدهور العلاقات العشائرية الاستغلالية القديمة) .

وتؤدى هذه الوضعية الى تضخم البطالة بالملايين في البادية وفي المدن ، بينما تعتبر الطبقة السائدة عاجزة عضويا عن التقدم ولو بخطوة واحدة جدية في حل مشكل التشغيل .

ذلك ان الطبقة العاملة ذاتها ، بالاضافة الى تفاقم ظروف الاستغلال الذي تعانيه ، صارت تتعرض للطرد الجماعي بفعل جمود الصناعات وتدهور بعض المعادن، (المصانع الموجودة لا تشتغل في المعدل الا بنسبة ٥٠٪ من طاقاتها ، وبعض المصانع المتقدمة يقع فيهااستبدال العمل اليدوي بالالات العصرية الباهضة الثمن والمستوردة ، ومجموع الصناعات الغذائية وصناعة النسيج مثلا تخضع لعدم استقرار منافذ التسويق) .

وتتحمل مجموع الجماهير الشعبية عبئا غلاء مطرد في المعيشة نتيجة طيش السماسرة والسقوط الفعلي لقيمة العملة (نظرا للتضخم المالي وسياسة صنع الاوراق المالية الفارغة) كما تتحمل ضرائبا فاحشة.

اما ميزانية الدولة فمدينة بتوازنها الظاهري لواقع ضخامة الديون وتفاحشها الى حد انه في غضون بضع سنوات ستصبح كل القروض الجديدة موجهة لتسديد الديون القديمة .

ويناقض هذا التدين والتضخم المالي البدخ والتبدير وتعفن جهاز الدولة بشكل يؤدي اسوء

الخدمات الطبقية السائدة سواء من حيث تفسخ وحدتها او من حيث عداء الجماهير لها .

ومجموع هذه الظواهر المتفشية ، ان كانت تعمق ازمة البنية القائمة وتضر بصورة مباشرة بالجماهير الشعبية فهي مع ذلك ظواهر تجد جذورها الحقيقية في البنية الاستعمارية والطبيعة العقارية الطفيلية للطبقة السائدة ، ولا يمكن ايجاد حل لها الا من خلال الحسم التاريخي لازمة تلك البنية بتغييرات جذرية ، وطنية وديمقراطية لمصلحة الجماهير الكادحة والمحرومة

والحركة الجماهيرية التي تفرزها بنية الاستغلال بالذات تهيء اكثر الطبقات وقوعا تحت وطأة الاستغلال (العمال والفلاحون الفقراء) لتجسيد الطليعة النضالية والسياسية تاريخيا لحركة التحرير، على انقاض القيادة الطبقية البورجوازية والبورجوازية الصغرى التي لم تمكنها مفاهيمها وايديلولوجيتها من استيعاب واقع البنية القائمة وآفاق تطورها وبالتالي من تبني خط سديد لقيادة الجماهير الشعبية بما فيها الطبقات الوسطية التي يتجذر موقفها من الاوضاع بحكم التسلط المتصاعد للاحتكارات الامبريالية والكمبرادورية .



قضايـا عربيـة

ما هو المضمون الحقيقي للاتحاد الثلاثي؟

لماذا يرتبط هذا الاتحاد بالتهاون مع الرجعية والتصادم مع القوى التقدمية ؟

كنا نعتزم نشر مقال في موضوع «الوحدة الثلاثية» بين مصر وسوريا وليبيا في اطار التناقضات العربية الحالية التي تولد من بين ما تولد .

تتقدم بورجوازية الدولة في توحيد صفوفها بينما تختلف عن هعم المقاومة الفلسطينية التي تعرضت للذبح الشنيع ، وتوجه «انيابها» ضد الحركات التقدمية

وننشر في هذا المجال مقال مجلة «الهدف» البيروتية ، والذي نعتقده صائبا في معالجة الموضوع.

بعد ظهر الجمعة ٢٠ آب الجاري ، جرى في دمشق من قبل الرؤساء انور السادات وحافظ اسد ومعمر القدافي التوقيع على وثيقة الدستور الاتحادي المقترح لـ «اتحاد الجمهوريات العربية» ، والذي سيعرض على الاستفتاء الشعبي بتاريخ الاول من ايلول القادم في كل من مصر وسوريا وليبيا .. ومن المؤكد ان هذا الاتحاد يعتبر حدثا سياسيا بارزا ضمن الظروف العربية الراهنة الامر الذي يخرج اتخاذ اي موقف منه عن دائرة الانفعالات السطحية السريعة ، ويخضعه للدراسة الموضوعية الجادة من جميع جوانبه ، لاسيما جانبيه الاساسيين النظري والسياسي :

الوحدة العربية ومضمونها الطبقي

لم يكن مصادفة ان يرتبط النضال الشعبي العربي من اجل الوحدة العربية وعلى امتداد تاريخ هذا النضال بالنضال من اجل كنس الوجود الاستعماري بجميع اشكاله ، بل وحتى بالنضال من اجل هدم اشكال الاستغلال « الوطنية » الرجعي الاقطاعي منها والبورجوازي .. فهذا الارتباط بالضبط هو الذي كان يعطي للنضال الوحوي العربي مضمونه التقدمي ويخلصه دائما من جميع مزالق الشوفينية والعنصرية التي علقت اكثر من مرة «بالنضالات» الوحدوية في اوروبا على سبيل المثال .

فلماذا كان يحدث ذلك ياترى ؟ وما هو السبب العلمي لهذا الارتباط ؟

النضال ، اي نضال ، ومن اجل اي هدف ، لابد وان يعبر عن وجود طبقة او طبقات لها مصلحة بذلك الهدف .. وهذا يعطي دائما للهدف المشار اليه المضمون التاريخي لمهمات ومصالح تلك الطبقة .. والوحدة القومية كهدف

ارتبطت تاريخيا بمصالح الطبقة او الطبقات ذات ارصلحة في تحرير المجتمع القومي من الحدود والفواصل والقواقع التي ينسجها المجتمع الاقطاعي .. وفي اوروبا كانت هذه المهمة مرتبطة ارتباطا مباشرا وثيقا بمصالح الطبقة البورجوازية التي كان التصنيع من اولى مهماتها التاريخية ، والتي كانت العلاقات الاقطاعية تعيق نموه : تعيق عملية الحصول على ايدي عاملة حرة ورخيصة وذلك من خلال سيطرة الاقطاع على الفلاحين وعرقلته لانتقالهم الى المدينة . كما تعيق عملية تصريف الانتاج من خلال الفواصل الجمركية التي يقيمها الاقطاعيون حول الاراضي والمناطق الخاضعة لسلطتهم ونفوذهم .. هذا الواقع جعل تحرير البلدان من سلطة الاقطاع الاستبدادية مهمة ضرورية على البورجوازية ان تحققها حتى تتمكن من السير بمصالحها الرأسمالية الى الامام ..

وانطلاقا من هذه الحقيقة كانت القومية في اوروبا مطلبا بورجوازيا بلغ من خلال الوجوه الرجعية لهذه الطبقة ، مبالغ شوفينية ورجعية في كثير من الاحيان اذ تحول فيما بعد الى عائق في وجه وحدة نضال البروليتاريا الاوروبية واستعملته الرأسمالية كسوط قومي ضد ذلك النضال ..

واذا كان هذا ما يتخلص به تاريخ «النضال» القومي في اوروبا ، فان النضال القومي في البلدان المتخلفة ومنها بالطبع البلدان العربية قد جرى بشكل مغاير تماما ولاسباب مادية ملموسة وواضحة ، اعطت ذلك النضال طابعا اكثر تقدمية اذ ربطته بمصالح طبقات اخرى غير البورجوازية ..

فنتيجة لسيطرة الامبريالية على السوق العالمية هيمنته اعلى الاقتصاد في البلدان المستعمرة والتابعة المتخلفة تمكنت من هذه الامبريالية من اخضاع الاقتصاد المحلي في كل من هذه البلدان لمصالحها ، وتمكنت بالتالي من اخضاع البنى البورجوازية الى تراكم لديها بعض من الرأسمال في ظل الادارة الاستعمارية ،لمصالح الامبريالية ودفعتها في اتجاه نمو مختلف اختلافا كبيرا عن الاتجاه الذي نمت فيه البورجوازيات الاوروبية .

لقد تحولت البنى البورجوازية في البلدان المتخلفة الى وكيل سياسي واقتصادي للامبريالية العالمية ، وتخلت عن مهامها التصنيعية المحلية ، اذ صارت موزعا للانتاج الامبريالي العالمي ووسيطا بينه وبين السوق المحلية في عمليتي نهب المواد الاولية على مجموع وفي ظل السيطرة الامبريالية على مجموع الاسواق المحلية لم يعد في توحيد تلك الاسواق مصلحة ملحة للبورجوازيات المحلية ..

ومن هذا الواقع تضاءل التناقض التاريخي بين البورجوازية والاقطاع في البلدان المتخلفة وانحل الى تحالف تهيمن عليه الامبريالية العالمية وتقوده وتحميه .. لان هذا التحالف تحول منذ ولادته الى موقع رجعي معارض لاماني ومصالح ومطالب الطبقات الشعبية الاخرى : البورجوازية الصغيرة والفلاحين والعمال ..

وبالضبط لهذا الاختلاف بين مسار نمو البورجوازية المتخلفة ومسار نمو البورجوازيات الاوروبية ، عجزت الاولى التي تحالفت مع الاقطاع عن اقامة الدولة الديمقراطية البورجوازية عندما تسلمت السلطة بعد الاستغلال السياسي بينما استطاعت الثانية في مرحلة

على الاقل ان تقيم تلك الدولة الديمقراطية البورجوازية .. واذا كانت قد اخضعت العمال لسلطة الرأسمال فانها قبل ذلك ومن اجل ذلك حررتهم كفلاحين من سلطة الاقطاع ..

بهذا العرض السريع للفارق الاساسي بين بين نمو البورجوازية في البلدان المتخلفة ونموها في اوروبا يتوضح لنا كيف تخلت البنى البورجوازية العربية عن مهمتها التاريخية التي كان منها تحقيق وحدة السوق القومية .. وبهذا التخلي انتقلت المهمات الوحدوية في عاتق الطبقة البورجوازية «الوطنية» الى عاتق الطبقات ذات المصلحة في النهوض الاقتصادي والاجتماعي اي في انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية .

الوحدة والبورجوازية الصغيرة

ان تخلي البورجوازية العربية عن مهماتها التاريخية نقلها كما اشرنا الى مواقع رجعية قبل قبل ان تكون قد خلصت المجتمع من علاقاته الاقطاعية وخلقت الطبقة العاملة من خلال سيرها في التصنيع الى الامام .. فجاء هذا التحول قبل ان تكون الطبقة العاملة قد تطورت فاتسعت نسبتها العددية في المجتمع وتمركزت واتخذت السمات الاساسية للبروليتاريا .. ومثل هذا الوضع هو الذي ترك حيزا اجتماعيا واسعا للبورجوازية الصغيرة في المدينة والريف وبمختلف مراتبها وشرائحها . هذه الطبقة (البورجوازية الصغيرة هي قطاع اجتماعي متحول ، قلة منه تصعد الى الاعلى بينما تهبط اكثريته الى صفوف الطبقة العاملة ، وهذه العملية مرتبطة ارتباطا وثيقا بتطور التصنيع في المجتمع) .. هذه الطبقة انتقلت اليها مهمات انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية بتخلي البورجوازية عن تلك المهمات .. ويلاحظ في هذا السياق تكون الحركات والاحزاب القومية والتقدمية والديمقراطية من هذه الطبقة في الخمسينات ، وقيادتها للنضال الوطني الديمقراطي التقدمي في تلك الفترة ضد التحالف البورجوازي الاقطاعي الازبريالي .

المضمون الطبقي لوحدة ١٩٥٨

في الخمسينيات تميز النضال العربي بثلاث ميزات رئيسية لعبت دورا بارزا في دفعه الى الامام وهذه الميزات هي :

١ ـ انهيار النظام الاستعماري القديم الذي كان يعتمد عليه التحالف الاقطاعي ـ البورجوازي المحلي ذلك الوقت .

٢ ـ استكمال التخلي البورجوازي المحلي عن مهماته التاريخية ، وتحوله الرجعي الفاشي نتيجة لذلك ..

٣ ـ نهوض البورجوازية الصغيرة الواسعة بمهمات النضال الوطني الديمقراطي التقدمي من خلال قيادتها لنفسها وللعمال والفلاحين ضد التحالف الرجعي الاستعماري المتهاوي ..

ونرى ان المنطقة قد عرفت في تلك الفترة مجموعة تحولات وطنية بارزة نتيجة للوضع الذي لخصناه ومن هذه التحولات اتساع دور القوى الديمقراطية القومية التقدمية في سوريا واطاحتها بدكتاتورية الشيشكلي العسكرية ودفعها الدولة رغم طابعها الرجعي في طريق

التنمية الوطني الديمقراطي واقامة علاقات اقتصادية وساسية وعسكرية مع المعسكر الاشتراكي توجت عام ١٩٥٧ ببروتوكول التعاون الاقتصادي المشهور .

اما في مصر فقد تمكن القطاع العسكري من البورجوازية الصغيرة المصرية ، وفي اعقاب احتدام النضال الشعبي العمالي ـ الطلابي ، من الاطاحة بنظام فاروق الملكي الاقطاعي ومصارعة النفوذ الاستعماري البريطاني وكنسه من مصر ..

هذان النضالان وفي ذروة تصاعدهما اديا الى اللقاء الوحوي عام ١٩٥٨ ذلك اللقاء الذي تميز بانه كان ذروة مد وطني تقدمي جماهيري على امتداد الساحات العربية كلها مما جعل وحدة ١٩٥٨ اول وحدة عربية تقدمية في العصر الحديث .

البورجوازية الصغيرة العسكرية وطبيعة الحكم

البورجوازية الصغيرة نتيجة لموقعها الطبقي لا تملك اساسا ثابتا للحكم لانها ليست احد الطرفين الرئيسيين في علاقات الانتاج الرأسمالية اولا والاشتراكية ثانيا .. فلا هي تملك وسائل الانتاج بشكل مباشر كالبورجوازية الكبيرة ولا هي قوة الانتاج كالطبقة العاملة .. هذا الواقع يفرض عليها كمشاركة في مواقعها الاجتماعية وبالتذبذب في سلوكها وسيطة في عملية الانتاج ان تتسم بالقلق والتخلخل واخلاقيتها وتفكيرها وثقافتها .

واذا كان الجناح العسكري لتلك «الطبقة» هو النجاح الاشد تنظيما وتماسكا وهو النجاح المسلح فها ما جعله الجناح الاقدر في الاطاحة بسلطة التحالف الاقطاعي البورجوازي واقامة سلطة بورجوازية صغيرة التملك المباشر لفضل قيمه العمل من خلال انتزاع عسكرية مكانها .. وجعل الدولة ذاتها مدخلا له الى ملكية وسائل الانتاج الاساسية من ايدي البورجوازية ووضعها في يد الدولة ..

الا ان هذا التنوع من التملك غير المباشر باختلافه عن التملك البورجوازي المباشر المتسم بالفردية ، ولاختلافه عن التملك الاشتراكي المتسم بوجود دولة الطبقة العاملة الاشتراكية ، ، كان مجبرا على توسيع قاعدة التملك المذكورة وبالتالي توسيع جهاز الدولة ليتسع لاوسع قطاع من مراتب البورجوازية الصغيرة المختلفة .

وهذا التوسع في القاعدة الاجتماعية للدولة هو الذي ادى الى نمو اجهزة بيروقراطية ثقيلة اخذت تمتص مدخرات التنمية وتأتي على نتائج الاصلاحات الاقتصادية ..

هذا من جهة في حين ان وصول الجناح العسكري للسلطة قد تم عن طريق المؤسسة العسكرية وليس عن طريق النضال الديمقراطي للجماهير ، وان هذا الوصول قد ترك على حكم ذلك الجناح العسكري الكثير من بصاماته فالقطاع الذي وصل الى التملك غير المباشر لثمرة الانتاج عن طريق وصوله للسلطة لم يعد قادرا ان يحافظ على موقعه هذا ما لم يحافظ على وجوده في التملك غير المباشر لفصل قيمة العمل من خلال انتزاع السلطة من خطرين براهما مباشرين :

● الاول : هو قيام فئة او فئات عسكرية اخرى بانقلاب مشابه ..

● : هو نهوض قوى شعبية تقدمية منظمة تشكل البديل التاريخي عن حكم البورجوازية الصغيرة .

ونراه لهذه الاسباب اولى اهمية كبيرة للتخلص في سحق كل من هذين «الاحتمالين» الامر الذي جعل من هذين الخطيرين ، فاخذ يعتمد على الاجهزة القمعية حكم الجناح العسكري البورجوازي الصغير متميزا بما يلي :

١ ـ الخوف من القوى الشعبية المنظمة (اخر مثال على ذلك تصريحات القذافي عن الحزبية والاحزاب

اعتماد التصفيات العسكرية ضد قوى الجماهير، وضد القوى العسكرية غير الثابتة الولاء (يلاحظ ان مجموع الانظمة العسكرية كانت معرضة دائما للانقلابات وحركات «التصحيح» من تحت ومن فوق)..

وما كادت الخمسينات تنصرم ، حتى كانت هذه (خاصة نظام الوحدة) قد استنفذت طاقاتها على التقدم الى الامام وسط كل هذه المؤثرات ، حتى بلغت ازمتها انها قدمت العداء للجماهير والقوى التقدمية على العداء لليمين الرجعي الداخلي .. الامر الذي اعطى لليمين المذكور مواقع جديدة في السلطة او على مقربة منها ـ لاسيما في الاقليم الشمالي ـ مكنته في عام ١٩٦١ من الاطاحة بحكم الوحدة في ذلك الاقليم. بفصل سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ..

وبهذا تكون البورجوازية الصغيرة ذات الجناح العسكري الحاكم قد تمكنت في الخمسينات ضمن المعطيات الثلاثية التي فكرناها (انهيار الاستعمار القديم عجز التحالف الاقطاعي البورجوازي ، وغياب الطبقة العاملة كدور مستقل ثوري ومتقدم) قد تمكنت من النهوض بالنضال الوطني والقومي التقدمي حتى حققت ضمن واحد من اهداف ذلك النضال عملية وحدة عام ١٩٥٨ الا انها مع دخول الولايات المتحدة باساليب الاستعمار الجديد ، ومع استنفاذ تلك الطبقة لطاقاتها التقدمية وتناقض مصالحها مع حركة الجماهير التقدمية قد عجزت عن اعطاء ما حققته من انجازات ، مضمونا ديمقراطيا شعبيا قادرا على السير بتلك المنجزات الى الامام ، الامر الذي اضعف تلك المنجزات وعرضها للانتكاس ..

وكان ان واجهت حركة التحرر العربي في الستينات ازمة هي في الحقيقة ازمة البورجوازية الصغيرة العربية الحاكمة وغير الحاكمة وان كانت الاولى اكثر مسؤولية .. وصادف بلوغ هذه الازمة حدها الاقصى مع تصاعد الهجمة الامبريالية الجديدة بقيادة الولايات المتحدة ، ذات الذراعين الصهيوني الاسرائيلي من جهة ، والرجعي العربي من جهة ثانية .

وفي هذا الجو كان عدوان حزيران ١٩٦٧ .. الذي كشف ضمن نتائجه المروعة عجز تلك الانظمة العسكرية عن المواجهة مع الامبريالية ما لم تجر تغيرات جذرية في طبيعة تركيبها وفي علاقاتها مع الجماهير والقوى الثورية .. الا ان بعض التغيير الجذري لا يجري تحقيقه بمجرد الارادات الذاتية .. انما يحتاج الى قوى موضوعية قادرة على الحركة والحسم واجراء التغيير، وان الغياب النسبي لهذه القوى قد مكن الانظمة المشار اليها من التحايل على عملية التغيير بما يكفي للحفاظ على وجودها في السلطة مع متابعة السير في طريقها السابق .. واذا كانت المعركة بمضمونها الواسع لم تتوقف فقد كان المسار محكوما بتصاعد ازمة الانظمة مع تصاعد الهجمة الامبريالية وهذا الواقع ادى بعد حزيران مباشرة الى اضطرار هذه الانظمة للتهادن الكامل مع الرجعية العربية ذلك التهادن الذي وصل الى ذروته

في لقاء فيصل ـ السادات في القاهرة .. والى البحث عن الحلول الوسطى مع الامبريالية الامريكية واسرائيل الممثل فيما يسمى بالتسوية السلمية لازمة الشرق الاوسط وفق قرار مجلس الامن ومبادرات روجرز وسيسكو .. والسادات وطبيعي ان مثل هذه السياسات لابد لها من الاصطدام العنيف مع القوى التقدمية فكانت مجازر النظام الاردني العميل ضد حركة المقاومة ، تلك المجازر التي اعطيت دائما الغطاء السياسي من الانظمة المذكورة .. كما كانت ضربة السادات لمعارضي هذه السياسة في حكمه ، ثم المجازر الوحشية التي تعرض لها الحزب الشيوعي وغيره من القوى الثورية والديمقراطية في السودان ..

وعليه ، اذا كانت هذه الانظمة قد وصلت الى ذروة ازمتها في حزيران ١٩٦٧ فان مواصلتها للنهج السابق قد دفعها الى التراجع بعد حزيران وفق الخطوط التي يمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ تهادن مع الرجعية العربية على النطاقين المحلي والقومي .

٢ ـ تحايد مع الامبريالية يتجه نحو الخضوع لها ولمخططاتها .

٣ ـ تزايد في الخوف من الجماهير وبالتالي تصاعد في الهجمة التصفوية على قواها المتقدمة .

٤ ـ التراجع البطيء اولا والمتسارع ثانيا عن العلاقات مع المعسكر الاشتراكي .

ان معرفة الانظمة بمدى تصادم هذه السياسات مع المطامح الوطنية والطبقية للجماهير ، جعل هذه الانظمة تسارع الى بذل كل طاقاتها لشل قدرة الجماهير على التعبير عن تلك المعارضة ، والى السير في طريق التحول القمعي بسرعة اكبر ، بل والى التعاون فيما بينها وبين الرجعية داخليا وخارجيا من جهة اخرى للوقوف في طريق التحركات الجماهيرية ..

الاتحاد الثلاثي .. و «النصف» !

في مثل هذه الاجواء تم الاتفاق على اقامة اتحاد ثلاثي مصر وليبيا والسودان ثم انضمت اليه سوريا ثم خرج السودان .. واخيرا ارتكز على انظمة مصر وليبيا وسوريا مع انتظار السودان لاستكمال «الشروط الداخلية» اللازمة له كي يلحق بالانظمة الشقيقة على طريق «وحدتها» ..

واول ما يلاحظ في هذا الاتجاه هو الفارق الكبير بين الجو الذي يحيط به وبين الجو الذي احاط بقيام وحدة عام ١٩٥٨ .. فبينما قامت تلك الوحدة في ظروف تصاعد النضال الوطني التقدمي ومشاركة اوسع قاعدة جماهيرية فيها يتم الاتحاد الثلاثي والنصف في ظروف تراجع كبيرا امام الرجعية والامبريالية واسرائيل وفي ظل عمليات قمع متصاعد للحركة الجماهيرية في الوطن العربي ..

واذا كانت وحدة ١٩٥٨ قد توجت صعود الحركة الوطنية التقدمية الشعبية رغم انها اختفت من خلال البورجوازية الصغيرة الحاكمة ، فان هذا الاتحاد يتوج ازمةتلك البورجوازية الصغيرة ومحاولتها المحمومة لخنق النهوض الجديد والمتقدم لحركة الجماهير ..

واذا كانت وحدة ١٩٥٨ قد جاءت في قمة التصادم الوطني مع الاستعمار والرجعية ، فان هذا الاتحاد يأتي في حضيض الارتماء البورجوازي الصغير الحاكم في

احضان الرجعية العربية والامبريالية العالمية خاصة الاميركية ، وعلى هذا الاساس يكون تعبيرا نموذجيا عن واقع هذا الاتحاد ان يسافر السادات بعد يوم واحد من توقيع وثيقة الدستور الاتحادي في دمشق الى السعودية «لينقل الى الملك فيصل نتائج لقاء «دمشق» ويتوجه في اليوم نفسه الى الخرطوم للاطلاع على الشوط الذي قطعه حكام السودان في تصفية القوى التقدمية .. وذلك كله ضمن عمليات الوساطة مع حسين من جهة والهجوم على الجبهة الشعبية والجبهة الشعبية الديمقراطية في حركة المقاومة من جهة اخرى

واذا كان بالاضافة الى هذا السلوك النموذجي ما يلخص طبيعة هذا الاتحاد فهو احد بنود الدستور الاتحادي ذاته والذي جاء فيه :

«مادة ـ ٦٤ ـ اذا وقعت اضطرابات من الداخل والخراج في احدى الجمهوريات تهدد امنها او تهدد امن الاتحاد ، تخطر حكومة هذه الجمهورية السلطات الاتحادية فورا لكي تقوم الاخيرة باتخاذ الاجراءات الضرورية ضمن صلاحيتها لحفظ الامن والنظام ، وفي حالة ما اذا كانت حكومة احدى الجمهوريات الاعضاء في وضع لا يسمح لها بطلب العون من الاتحاد او اذا كان امن الاتحاد في خطر فللسلطات الاتحادية المختصة ان تتدخل وبدون طلب لحفظ النظام واعادة الامور الى نصابها ..»

بعد مثل هذا التقييم لجوهر وطبيعة هذا الاتحاد يصبح من غير المستغرب اطلاقا ان نرى الجماهير التي كانت دائما ـ وستبقى ـ امينة لشعار الوحدة ، نراها تقابل هذا الاتحاد بسلبية مغرطة وبغير اكتراث .. لان حس الجماهير كان دائما مؤشرا اوليا سليما لاتجاه مصالحها الحقيقية وامانيها .

رسالة من باريس حول : الوضع الطبقي في الجزائر

تعددت على الصعيد العربي تجارب وتعاقبت طبقات حملت نفسها لافتة الاشتراكية « العربية » او « العلمية او المطابقة للخصائص الوطنية » . ومجموع هذه الاشتراكيات المزيفة لا تطابق في الواقع غير خصائص بورجوازية الدولة كتشكيلة معادية للجماهير الكادحة ولخط التحرير الوطني الصحيح من الصهيونية والامبريالية . وقد سبق ان نشرنا مقالا في حلقتين حول الصراع الطبقي في مصر . وفي هذا العدد ننشر الجزء الاول من وثيقة توصلنا بها من باريس حول الوضع الطبقي في الجزائر . ولا شك ان هذه الوثيقة ستكشف لنا بعض اسرار التعاطف الاخوي الحالي بين صحافة بورجوازيتنا الوطنية و «الاشتراكية الجزائرية الواقعية»

ان مستقبل المجتمع الجزائري متوقف على القدرات التنظيمية وعلى نضال الطبقة العاملة وامكانياتها في حشد كل الطبقات المستغلة في البلاد من حولها ، اي في الواقع قيادة مجمل الحركة.

فما هي طبقات المجتمع الجزائري في الوقت الراهن ، وما هو المكان الذي تحتله كل واحدة منها في البنية الاقتصادية والاجتماعية ، وما هي العلاقة التي تربطها بالحركة الثورية ؟

تلك هي الاسئلة التي علينا ان نجيب عنها لكي نستطيع تحديد اشكال وحدود العمل البروليتاري في الجزائر .

١ ـ طبقة الملاكين العقاريين شبه الاقطاعيين

ان الملكية العقارية الكبيرة في الجزائر لها تاريخ طويل محتجب وراء العلاقات «البطريركية» والايديولوجية الاخوية مما غذى عددا من الاوهام (روزا لوكسمبورج) ، وفيما يرجع للطابع الجماعي لعلاقات الانتاج في الزراعة الجزائرية قبل الاستعمار فقد تمت المحافظة على الملكية العقارية الضخمة ، بل لقد جرى تطويرها في بعض المناطق اثناء فترة الاحتلال.

انه يصعب على المرء ان يحدد العدد والقوة الاقتصادية للملاكين العقاريين شبه الاقطاعيين في الجزائر الحالية ، فالاحصائيات الرسمية والشعبية التي هي الايديولوجية السائدة لهذا العهد ، لا يدخران وسعا لاغراق هذه الطبقة بمفهوم «القطاع التقليدي»

وبصفة توضيحية سنبين ان المعطيات الرسمية تجدد خصائص هذه الطبقة على ضوء المساحة المتوفر

عليها ، وغياب عناصرها عن عملية الانتاج (المزارعون بالوكالة) ١٦.٠٠٠ ملاك يشكلون ٣٪ عن المجموع ويملكون ٣٥٪ من المساحة الزراعية الخاصة ، حوالي ١،٥ مليون هكتار .

ويمكننا ان نؤكد منذ الان بان هذه الطبقة هي اكثر الطبقات رجعية في المجتمع الجزائري ، هذه الطبقة التي تستغل العمال الزراعيين وبصورة رئيسية الخماسين و METAYERS استغلالا فظيعا ، وتحت اكثر الاشكال خبثا .

ان الايرادات العقارية التي تصل احيانا الى ٩/١٠ الانتاج والخدمات المختلفة من كل نوع لا تترك للمستأجر الا الحد الادنى الضروري لبقائه على قيد الحياة وغالبا دون هذا الحد الادنى مادام مجبرا على اللجوء الى سلسلة بكاملها من وسائل العيش بدءا من بيع قوة عمله حسب المصادفات ، وانتهاء بمنفاه (الاغتراب) الموقت او النهائي مرورا بالعمل في البيت .

ان هذه الملكية العقارية لا تسمح بأي استثمار .

ان المسأجر لا يستطيع ان يستثمر اي شيء لانه هو نفسه لا يملك شيئا .

ان الملاك العقاري يستهلك لا انتاجيا مجموع المداخيل او يمارس التجارة ليشتري الخراف .. الخ .

الحاق الضرر بالتربة ، والاستغلال اللاأخلاقي للعمال المباشرين والاستهلاك اللامنتج للفائض تلك هي عواقب وجود هذه الطبقة . ان استغلالها مسموح به ، ومبرر ، ومشروع من قبل الايديولوجية الاخوية ، الاكليريكية ويتجند لخدمتها فئة محرضة من المثقفين المدافعين عن مصالحها الايديلوجية في التعليم عن طريق رسائل الاعلام العمومية ووسائل الدعاية كالمساجد والتلفزة والاذاعة والجرائد . ان هذه الايديولوجيات تفسح المجال لنفسها تحت حجة النضال ضد الماركسية .

٢ البورجوازية الوطنية

أ ـ في الزراعة :

تريد الايديولوجية الرسمية بكل ثمن اخفاء وجود العلاقات الرأسمالية للانتاج في الزراعة والتطور ، الذي بات قديما للبورجوازية ، واذا كانت هذه الطبقة قد قلمت اظافرها من طرف المعمرين الفرنسيين فان الاستقلال قد حررها تماما ، وفي اليوم باتت تتخصص في قطاعات معينة كتربية الابقار ومن ثم صناعة الحليب ومشتقاته التي تعود اليها ، وزراعة البقول وما دامت الدولة تساعدها فانها تحسن استغلال هذه القطاعات التقليدية قبل تجارة التمر وانتاج الزيت .

ان الاحصائيات الرسمية للاسباب الآنفة الذكر لا تسمح حاليا بالتفريق بين الاستثمارات ذات النمط الرأسمالي والاستثمارات شبه الاقطاعية .

انها تضع هذين الشكلين من الاستغلال ـ المختلفين تماما ـ تحت نفس العنوان المسمى : «الاستثمار الكبير» . وفي الواقع فان قسما من الاستثمارات الكبيرة هو من النمط شبه اقطاعي والقسم الاخر من النمط الرأسمالي . ويجب ان نضيف لهذين النمطين قسما اخر من الاستثمارات المتوسطة وحتى بعض الاستثمارات «الصغيرة» .

ان ما يميز هذين النمطين ، ومن ثم ما يميز الطبقات التي تشكل دعائمها ، الملاكين العقاريين من البورجوازية ـ انما هو لجوء الثانية الى العمل المأجور واستخدام الالات الميكانيكية كالجرارات والحصادات والعربات الخ ... واخصاب الارض باستعمال الاسمدة ، واخيرا الى توجيه الانتاج نحو هذه المزروعات التجارية والصناعية ، وباختصار الى الاستغلال الرأسمالي لعمل الاخرين . ان هذا التمييز يجب القيام به وسيجنبنا الوقوع في كثير من الاخطاء عند تقييم الصراع الطبقي ، في شكله كما في حدته .

ويجب ان نلاحظ مع ذلك ان هذا التمييز لا يتعلق الا بالطبقات كطبقات لا بالافراد الذين تتركب منهم لانه من المؤكد ان عناصر طبقة الملاكين العقاريين يتحولون تدريجيا الى رأسماليين في حين ان كثيرا من بورجوازيي البادية يستمرون في استخدام الاساليب الاقطاعية للاستغلال بدفع اجور العمال عينا ، ودون الاجرة المشروعة، ويمارسون اشكال التشغيل شبه مولوية التي تسمح لهم بتحويل العمل المأجور «الحر» مبدئيا الى اشغال شاقة حقيقية. ويجدون كذلك في الايديولوجية السائدة ، الاخوية وسيلة اضافية للتخفيض من قيمة عمل العمال .

ولكن في التحليل الاخير، فان هذه المناهج التي تقود الى الاستغلال المضاعف للعمال ـ بالعمل على تشغيلهم اكثر مقابل اجرة اقل تعتمد على وجود جيش عرمرم احتياطي الذي يشكله الفلاحون بلا ارض، والمالكون الصغار المفلسون ، والخماسة جيش له وزن ثقيل جدا على سوق العمل في الزراعة .

ان البورجوازية في البادية (الارقام التي نعطيها ذات ترتيب تصاعدي ويجب الا تستعمل بهذا المعنى) تشغل حوالي ١,٥ هكتار تمثل ستين الف استثمار الشيء الذي يدل على ان ٢٥٪ من المساحة الخصوصية الكلية تتركز بين ايدي ١٠٪ من الملاكين .

ويلاحظ ان التمركز البورجوازي في الارض هو اقل من التمركز شبه الاقطاعي بمعدل النصف ولكن البورجوازية بالمقابل تركز بين يديها نصف التجهيز الزراعي الموجود في الجزائر والذي يكون حوالي ٢٠ الف وحدة (جرارات ذات العجلات وجرارات مزنجرة) الى الاربعين الف الموجودة ، ومجموع تربية البقر ومن ثم تسويق الحليب الذي تختص به ، وقسما كبيرا من تربية الغنم .

وتملك زيادة على ذلك مجموع الماشية (خيول ، بغال، حمير) هذه الحيوانات التي تكتسي اهمية كبرى بالنسبة للملاكين الصغار والمتوسطين الذين لا يستطيعون شراء الادوات الميكانيكية . واخيرا فان هذه الطبقة تشرف بالفعل على مجمل الدورة التجارية للمنتجات الزراعية. في الجزائر ، حتى تلك المنتجات التي ليست من قطاعها الخاص ، وبهذه المحافظة على فئة طفيلية وذات نزعة تجارية من كل نوع ، تمتلك مجموع الفائدة التجارية العادية على ظهر المنتجين والفوائد الزائدة (حسب حالة السوق) على ظهر المستهلكين سواء بسواء .

ان البورجوازية الوطنية باعتبار ان كثيرا من المتاجرين من كبار الوكلاء الذين يستمدون قسما كبيرا من ارباحهم من ضعف الملاكين الصغار وعدم تنظيم الدورات التجارية ، فانها رجعية ضد الديمقراطية ،

وقريبة من الامبريالية ، رجعية لانها تشاطر اعمامها وآباءها كبار الملاكين العقاريين الافكار الاكثر رجعية والمتعلقة سواء باساليب العمل (تنظيم المؤسسات، الاستثمار ، التجارة) او بالربح والاجور . ضد الديمقراطية : لانها تعارض اي اصلاح زراعي مهما كان خجولا وحتى لو لم يمس ملكيتها كما هو الشأن بالنسبة للاصلاح الزراعي المقترح من طرف النظام القائم .

مع الامبريالية لان مصالحها الراهنة اذا لم تمس من طرف التجارة الامبريالية العالمية للمنتجات الزراعية فهي من الرأسمالية ، ضد الاشتراكية وتقوم بما في وسعها للاسراع بدمج الجزائر في المعسكر الامبريالي .

ولذا فانه لاينتظر اي شيء من هذه الطبقة .

ب ـ الفئة الحضرية من البورجوازية الوطنية :

هذه الفئة هي اكثر نشاطا من الفئة القروية ، وكهذه الاخيرة فان توسعها قد حد منه اثناء الاحتلال ولكن الاستقلال ارخى العنان لتطورها ، وبفضل حماية النظام لها بالمساعدة الهامة من طرف الدولة (على ظهر الشعب) وبفضل نظام ضريبي يحررها من كثير من التكاليف ، وبفضل قوة عمل «رخيصة» لا تستطيع البروليتاريا حتى اعادة النظر فيها بواسطة نشاطها النقابي (كل نشاط مطلبي بقمع بشدة من طرف النظام). فان البورجوازية الوطنية في الطريق لان تصبح ـ ضمن **الحدود التي تسمح لها الامبريالية ـ سيدة قطاعات كثيرة من الاقتصاد . وسنرى فيما بعد ان القطاعات** التي «تتخلى» عنها البوجوازية البيروقراطية لطبقة اخرى لا تشكل اطلاقا منافسة لقطاعاتها ، ولكن على العكس فانها مكملة لها .

هذه بعض الارقام الرسمية: الف مؤسسة «صغيرة» تشغل أكثر من ٧٠٠٠ أجير. وفي الواقع فان هذا الرقم بعيد عن الحقيقة . فعدد من المؤسسات الصغيرة يفلت من التقديرات الادارية لانه يقدم معلومات مزيفة عن عدد العمال المشغلين ـ الذين غالبا ما يكونون اطفالا ونساء وشيوخا ، بأجر منخفض ، بلا تأمينات ولا تعويضات عائلية .

ومن هذه الالف ، نجد ١٩٢ مصنعا للمواد الغذائية يشغل اكثر من ٢٠.٠٠٠ عامل، ويليه «النسيج» وعددها ١٧١ مصنعا يشغل ١٨٠٠ عامل ، وجميعها تحقق رقما ماليا يتعدى ٣٥٠ مليون دينار وينتج قيمة مضافة : حوالي ١٠٠ مليون دينار .

هذه القيمة توزع على : ٢٨ مليون دينار للدولة (ضرائب)

٣٢	«	«	للاجور
٤٠	«	«	للارباح

ومرة اخرى ينبغي ان نسجل ان هذه الارقام ذات ترتيب تصاعدي والتحليل الملموس ، ذو النفس الطويل بامكانه ان يعطينا مجموع علاقات الاستغلال التي تحدد درجة نشاط البورجوازية الوطنية.

في المؤسسات الكبيرة : وبالنسبة للاحصائيات الرسمية فان المقصود بها تلك التي تشغل أكثر من ٢٠ اجير . ان ٥٢٠ من الف تتمسك بها البورجوازية يشتغل بها حوالي ٣٢.٠٠٠ اجير من مئة الف . هذه

المؤسسات تحقق رقما ماليا من ١،٧ مليار دينار ، في حين ان العمال ينتجون قيمة من ٧٢٠ مليون دينار توزع كالآتي :

٢١٠ مليون دينار للدولة

٢٥٥ مليون دينار مصاريف الموظفين

٢٢٥ مليون دينار ارباح

ويجب ان نضيف لهذا العدد اكثر من الف مؤسسة «البناء ، والاشغال العمومية» التي تشغل ٦٠٠٠٠ أجير دنتجون قيمة من ٦٠١ مليون دينار . وفيما يتعلق بـ ٥٢٠ مؤسسة السابق ذكرها تنقسم الى فروع بالكيفية التالية ١٣١ تذهب الى النسيج بنسبة ٨٠٪ من الفرع: ١١٦ .

٩٠ تذهب الى المصانع الميكانيكية والكهربائية بنسبة ٦٠٪ من الفرع : ٦٦

٢٩ هي مصانع الجلد تكون ٧٥٪ من الفرع

٦٨ مصانع من الخشب والورق تكون ٥٥٪ من الفرع : ١٢١ .

وسواء بالنسبة للمؤسسات الصغيرة او الكبيرة يلاحظ ان البورجوازية الوطنية تتخصص في : النسيج والصناعات الغذائية ، والصناعات الميكانيكية ، والبناء هذا الواقع يجب ربطه بما سبق قوله عن «القروية» من هذه البورجوازية.

ان الصناعات الغذائية لا تأتي بعد انتاج اللحم، والخضر والفواكه في الزراعة ،

يظهر ان هاتين الفئتين من البورجوازية تعملان الواحدة من اجل الاخرى ، وانه يوجد تقسيم للعمل الاجتماعي يجعل هاتين الطبقتين مكملتين الواحدة للاخرى . وسنرى من جهة اخرى ان تقسيم العمل هذا داخل نفس الطبقة يخفيه تقسيم للعمل اوسع ، بين كثير من الطبقات على صعيد المجتمع كله .

ثم انه غالبا ما توجد نفس العناصر على مستويين الانتاج الزراعي ومستوى التحويل الصناعي ، والفئتان من البورجوازية مرتبطتان ارتباطا وثيقا : اقتصاديا كما بين التحليل السابق ، واجتماعيا لان «الاعمال» تتم عائليا بين «الاعمام» و «الاخوان» وايديولوجيا أخيرا وانه ان كانت الفئة «الحضرية» من البورجوازية اكثر نشاطا من الفئة القروية الا انها تشاطرها نفس الافكار الرجعية، نفس احتقارها للفقراء ، ونفس تعطشها للربح . المصالح الاقتصادية لهذه الطبقة تحملها بعيدا جدا بالنسبة لمصالحها السياسية ولهذا فهي تقبل اي نظام ، سواء أكان استبداديا او فاشيا .، اذ يكفيها ان تستغل عمل الاخرين بكامل الاطمئنان لكي تصبح الحياة بالنسبة لها مقبولة .

ان الحد السياسي الاقصى الذي يمكن انتظاره من هذه الطبقة هوليبريالية مقنعة مصبوغة بصبغة ديمقراطية وموقف سلبي تجاه الاصلاح الزراعي (هذا الذي قدم من طرق النظام الحالي) ، ونوع من القلق ازاء الامبريالية التي تخاف من منافستها .

انه حد اقصى متواضع جدا ولكن يقابله رفض نشيط للاشتراكية وكل ما يمت اليها بصلة . يجب اعتبار هذه الفئة من البورجوازية ومن ثم كل البورجوازية بمثابة عدو يدافع عن مصالحه ، عندما تتعرض هذه

المصالح للخطر ، بضراوة اكثر من ان نعتبرها قوة سلبية يمكن مناورتها بسهولة ، لا ينبغي التهوين من الطابع الرجعي لهذه الطبقة ومقدرتها على النضال ضد البروليتاريا (انها يمكن ان تذهب الى حد قبول مجتمع عسكري ، فاشي ، وهي تعد نفسها في الاتجاه بوضع رجالها اليد على المناصب القيادية في الجيش) .

وان اية مقارنة الى جانب اشياء اخرى ـ لا ينبغي ان تفقد بين دور البورجوازية الوطنية في الجزائر والدور الذي تلعبه بعض البورجوازيات الوطنية في آسيا. في الصين والفييتنام مثلا حيث اندمجت في الجبهة الوطنية ضد الامبريالية بقيادة البروليتاريا .

٣ البورجوازية البيروقراطية

ان وجود رأسمالية بيروقراطية الدولة في الجزائر ، الامر الذي جعل الرأسمالية في هذا البلد تأخذ الشكل السائد لرأسمالية الدولة ينتج من جهة عن الطابع الخصوصي للاستعمار والبنية الاقتصادية وبالتالي البنية الطبقية التي اقامها هذا الاستعمار ، ومن جهة اخرى عن حركة التحرير الوطني والطابع «الشعبي» لهذه الحركة . لقد كان الاستعمار الفرنسي استعمارا استيطانيا . وكان من نتائجه تحويل الجزائر الى اسواق للمواد الاولية والمنتجات الزراعية واليد العاملة الى فرنسا ، ومرتبطة بها كلية فيما يخص حاجياتها الى المواد المصنعة ، بنية هذا الاقتصاد «المحرر من الاستعمار» حالت دون تطور بورجوازية اهلية وحدت من نشاطات هذه الاخيرة في التجارة وفي المضاربة العقارية وفي النقل الخفيف الخ..

وخلال ذلك فان مجموع فائض القيمة تقريبا الذي ينتجه العمال كان يذهب الى فرنسا ، ويسد بذلك الباب امام كل امكانيات للاستثمار وبالتالي الانماء .

وجنبا الى جنب مع حصر البورجوازية ضمن هذه الحدود ، فان البيروليتاريا الجزائرية لم يكن بوسعها ان تتطور الا في الزراعة وفي القطاعات الصناعية التي تتطلب ادنى كفاءة .

ان ضعف البورجوازية المقترن بضعف البروليتاريا الجزائرية ، والطابع الشعبي لحركة التحرير الوطني اعطت هذه الحركة قيادة بورجوازية صغيرة لم يكن بامكانها ان تؤدي لا الى الاشتراكية حيث ضعف البروليتاريا وغيابها من قيادة الحركة الوطنية ، ولا الى الرأسمالية «التقليدية» لنفس الاسباب فيما يخص البورجوازية .

ان تطور الاقتصاد الجزائري في الاطار السائد لرأسمالية بيروقراطية الدولة يبدو ايضا كنتيجة لمشاركة الشعب في حركة التحرير الوطني بقدر ما هو حالة توازن في الصراع الطبقي ، انه تسوية «موضوعية» سيتوقف تاريخها اساسا على الكفاءات الثورية للبروليتاريا .

ان العلاقات الرأسمالية للانتاج في اطار رأسمالية الدولة توجد كذلك على مستوى «التسيير الذاتي» (في الصناعة وفي الزراعة ـ كما في الشركات الوطنية) .

وفي كلتا الحالتين فان الشغالين هم عمال يجب عليهم ان يستثمروا رأسمال ، اي ان ينتجوا فائض قيمة .

وفي استقلال عنهم علاقة رأسمالية للانتاج يدخلون وفي كلتا الحالتين فان العمال يجدون امامهم

فيها ببيع قوة عملهم .

وفي كلتا الحالتين تحدد الارباح، ومداخيل الدولة والاجور لا طبقا للحاجات الاجتماعية للعمال وانما طبقا لقوانين السوق الداخلية والعالمية .

ان هذا هو ما تطلق عليه الايديولوجية الرسمية «مردودية» المؤسسات .

ان ما يميز المؤسسات «المسيرة ذاتيا» عن الشركات الوطنية ليس هو نمط الانتاج ، الذي هو رأسمالي في الحالتين معا ، وانما فقط تقنيات التسيير داخل المؤسسات .

هذه التقنيات هي ظاهريا «اكثر ديمقراطية» في حالة المؤسسات المسيرة ذاتيا ، ولكن هذه الديمقراطية المزعومة داخل المؤسسات ليست الا وهما خادعا يخفي العلاقات الرأسمالية الحقيقية بين مختلف المؤسسات، وبينها وبين المؤسسات المالية ، والقروض التجارية .

ان التسيير الذاتي كنمط اشتراكي للانتاج كان (ويكون دائما) بالنسبة للكثيرين سرابا خداعا استخدمته الانظمة السياسية المتعاقبة للتغرير بالطبقة العاملة وصرفها عن اهدافها النضالية الحقيقية .

ان كثيرا من البورجوازيين الصغار (ولا سيما مثقفي «اليسار») الاشتراكيين على الطريقة اليوغسلافية والفوضويين المحدثين قد امنوا بها وساهموا في ترويجها على نطاق واسع .

تتكون البورجوازية البيروقراطية في الجزائر :

– من مسيري المؤسسات الوطنية : ، والمدير العام والاطر العليا .

– من الموظفين الكبار في الدولة ، وفي جهازه حزب ج ت و ، والوزراء والدواوين الوزارية والموظفين السامين في حزب ج ت و ، والولاة ، وخلفاؤهم .

– من الضباط السامين في الجيش : عقداء ، وقادة (كومندان) ، وقبطانات

وعلى مستويات التقرير المختلفة والمتسلسلة فان هذه الفئات المختلفة من البورجوازية البيروقراطية تتصرف بالطريقة الاشد رأسمالية في قطاعات هامة من اقتصاد البلاد ، واحيانا فان تناقضات يمكن ان تجعلها متعارضة بعضا مع بعض .

وايضا يمكن للتيكنوقراطيين ان يتعارضوا مع «السياسين حول مسائل العطاءات المالية للشركات الوطنية الى الدولة .

والسياسيون بدورهم يمكن ان يتعارضوا مع «العسكريين» حول مسائل التحالفات الدولية ، وكذلك فان «السياسيين» يمكنهم ان يؤنبوا ADMONESTER المدعويين بالممثلين المنتخبين للمجالس الشعبية البلدية

غير ان كل التناقضات يجب ان توضع في مكانها: مكانها الثانوي بجانب التناقض الذي يجعل هذه الطبقة بمجموعها تتعارض مع البروليتاريا . وان الذين يركزون عملهم على هذه التناقضات الثانوية ، هم انتهازيون يمينيون ، لا يمكنهم غير صرف البروليتاريا عن قصدها الاكثر ثورية : قيادة حركة التحرر الاقتصادي .

١ – فى الزراعة : البورجوازية البيروقراطية لها القيادة الفعلية لـ ٢٠٠٠ مؤسسة المسماة «مسيرة ذاتيا» وتشغل أكثر من ٢ مليون هكتار ، وتملك اكثر من نصف رحبة (ARC) العتاد الزراعي الممكنن ، بقدر ما تملكه البورجوازية الوطنية ٢٠.٠٠٠ وحدة) . وتتوفر على عدد كبير من مكاتب تسويق المنتجات الزراعية بقطع النظر عن اي اعتبار آخر ما عدا اعتبار السوق . وان

المؤسسات المالية والقروض المتمركزة حاليا في البنك الوطني الجزائري لها التوجيه الفعلي لعملية سير الانتاج ما دامت هي التي تحدد مقدار القروض ومدة تسديدها ، وهي ايضا التي تحدد تقسيم القيمة المضافة الى الاجور ، وصناديق الاحتياط ، واتاوت الدولة ، وصناديق الاستثمار .

ان مجموع وسائل انتاج هذه المؤسسات يستثمر من قبل ١٤٠.٠٠٠ عامل دائم و ٦٠.٠٠٠ موسمي .

ان حصة هامة من انتاج المؤسسات «المسيرة ذاتيا يتم تصديرها كالخمور ، الخضر ، الفواكه : وان سعر هذه المنتجات مرهون بتقلبات السوق الامبريالية العالمية وبصورة اخص السوق الاوربية . انه شكل من اشكال التبعية لا يجب اهماله وان العمال غالبا ما يدفعون الثمن من قوة عملهم اذ انهم يتهمون (من طرف البورجوازية البيروقراطية) بكونهم مسؤولين عن «العجز» .

كما انه لا ينبغي اهمال «تعاونيات قدماء المجاهدين التي تتيح لهؤلاء العيش دون عمل ، بفضل الدولة ، وعلى ظهرا لعمال الذين يتصرفون على هواهم (اي قدماء المجاهدين) في تشغيلهم وتسريحهم ، ويبتزون منهم قانونيا نصف الاجرة .

ان علاقات اقطاعية عمليا تجمع بين «ارباب العمل» هؤلاء وعمالهم ما دام العجز الدائم لهذه «التعاونيات» الذي يعزى الى السرقات واختلاس الاموال، بلا حساب ولاعقاب من طرف هؤلاء الاشخاص ، يجري تعويضه بواسطة اعانة الدولة . ولا ننسى ان هؤلاء المجاهدين القدماءابستمرارهم قاعدة اعتماد للنظام يشكلون جزءا من ترسانته البشرية للقمع في كل مرة يحتاج اليها .

انه يصعب حساب القيمة المنتجة من طرف عمال التسيير الذاتي ، وفي جميع الاحوال نستطيع القول بان هذه القيمة تتضح من الاجور (الاجر هنا يساوي الحد الادنى الحيوي ، دونه لا يعود بامكان العامل ان ينتج قوة عمله) وتصديقا للسلطات الرسمية بانها تتمثل كلها في هذه الاجور ، زائد الارباح في حالة المؤسسات «المربحة» وفي الواقع فان قسما كبيرا من القيمة يؤول ، بفضل آليات معقدة لتحديد الاسعار ، الى الرأسماليين الذين رأينا انهم يشرفون بالفعل على دواليب التجارة الداخلية ، وقسما اخر يذهب الى هيئات السلف والتمويل، الى الدواوين OFFICES وجميعها تشكل البنية العليا البيروقراطية للمؤسسات المسيرة ذاتيا ، وقسما اخر في الخيام يذهب الى البيروقراطيين المحليين (مسؤولي الحزب) ممثلي المجالس البلدية الشعبية الخ والباقي تمتصه السوق العالمية .

كل هذه الآليات تبين بأن المستقبل الاشتراكي للتسيير الذاتي يقوم على ديكتاتورية البروليتاريا التي هي وحدها تسمح بسيادة العمال لتحطيم قوانين السوق .

يتبع ...

في العدد القادم :

ب البورجوازية البيروقراطية الصناعية
٤ البورجوازية الصغيرة
٥ الجماهير المبلترة
٦ البروليتاريا

من اجل حوار حول الحركة الوطنية

ابراهيم الخطيب

نشرنا في العددين السابقين مقالا في حلقتيــن للاخ عبد القادر الشاوى في موضوع « ازمة الفكــر السلفي» . وبصدده نفتح نقاشا موسعا حول موضـوع الحركة الوطنية بوجه عام . وفي هذا الاطار، ننشر مقالا للاخ ابراهيم الخطيب كرد منه على الشاوي ، ومقالا للاخ سعيد البربوشي ، ونرجو ان يستمر توسيع وتعميق هذا النقاش .

١) ــ لا اريد ان اكون مدافعا عن افكار السيــد علال الفاسي ، فهذا شيء لا يدخل في مشروعي . ولكنني سأحاول ان اوضح مجموعة من المغالطات تقوم علــى « اسس » ماركسية معوجة . وبدءا ، ينبغي ان اؤكد ــ او اعيد ، لا ادري ــ ان الماركسية ليست « اسلوبا » في الكتابة ، ولا معجما للالفاظ والمصطلحات ، ولكنهــا ــ داخل امكانياتها النظرية ــ « طريقة في التفكيــر » . « ان كل الافكار الخاطئة وكل الاعشاب السامة وكــل الشياطين والغيلان يجب ان تعرض للنقد » (ماوتسي تونغ) هذا كلام صحيح ، وهو بقدر ما ينطبق على كتاب « النقد الذاتي » ، فانه ينطبق ايضا على ما كتبــه الاخ عبد القادر الشاوي (انفاس ــ العدد ٢ ــ يوليه ١٩٧١) من كلام يتضمن كثيرا من « الافكار الخاطئة ». انني لا اتهم احدا بالجهل (فهذا ايضا لا يدخل في مشروعي) غير انني استطيع ان اقول ان « البلاغة » الماركسيــة تمكنت من تشويه كثير من الحقائق ، خصوصا لدى من « حسنت نياتهم » . هذا شيء ينبغي ان يكون واضحا : الماركسية ليست تيولوجيا تنطوي على منظومة مــن (الاسرار) لا يفهمها غير الاكادميين، ولكنها مع ذلك ليست « احكاما عامة » يمكن « نقلها » او « سحبها » بسهولة. ان اخطر اعداء الماركسية هــو التعميــم و ، ايضــا ، « الحرفية ».

٢) لقد شن (لينين) في سنوات ١٦ ــ ١٩١٨ حربا لا هوادة فيها على (فرسان الجملة الثورية) الذين كانوا « مخلصين فعلا » ولكنهم لم يكونوا قادرين على فهــم الماركسية في العصر الاستعماري الامبريالي ، فهمــا جيدا ولهذا ظلت «مفرداتهم» مفرغة من محتواها مادامت لا تعبر عن هذه «الحقائق الجديدة»؛ ان الخطأ الــذي يرتكب الى اليوم هو اعتبار « الحرفية الماركسية »اساسا لتفسير « سياسة » العصر . ان عبد القادر الشاوي يعيد اخطاء (فرسان الجملة الثورية) بعد اكثر من نصف قرن ، عندمــا يأخــذ المقــولات الاولــى للماركسيــة لـ « يستعملها » في نقد (الحركة الوطنية) من خلال (النقد الذاتي) دون مراجعة « شروحها الليينينية » التي وضعتها وضعا صحيحا في اطار عصر التوسع الاستعمــاري الامبريالي ونهضة « الوطنيات ».

٣) بايجاز ، يمكن تجميع الملاحظات التي توصل اليها عبد القادر الشاوي فيما يلي :

أ ــ ان الحركة الوطنية كان ينبغي ان تخضــع لغربلة طبقية .

ب ــ ان الحركــة الوطنيــة كانــت « خــدعــة » بورجوازية .

جـ ـ ان الفكر السلفي هو بطبيعته « فكر ديني رجعي » .

د ـ ان الفكر السلفي كان فكرا نخبويا ، مغلقا ، وغير مفتوح .

هـ ـ ان التحالف الوطني (اقطاعية ـ بورجوازية ـ بورجوازية صغرى) كان في عمقه ارتباطا « مباشرا بالاستعمار او غير مباشر » .

و ـ ان الحركة الوطنية فشلت في « تحديث » (!) حزب يقود الطبقة العاملة والجماهير العريضة من الشعب » .

٤) ـ لن تكون ردودي خارج اطار النظرية الماركسية ـ اللينينية ، ولهذا فانني اضع هذا السؤال : هل قرأ الاخ الشاوي ، عند لينين ، شيئا عن الفوارق ما بين « الثورة الوطنية » و « الثورة الديموقراطية » ؟ لن ادخل في تفاصيل الاختلاف فيما بين الثورتين ، ولكنني اعرف ان لينين كان يرى احدى السماة الهامة للثورة الوطنية هي التحالف الطبقي الموسع (انظر موقف ماركس ـ انجلز من الحرب الالمانية) . ان فهمنا لهذه المسألة لن يكون اكثر وضوحا ما لم نراجع موقف لينين ونضاله ايضا في سبيل «المسألة الوطنية» التي كانت مسألة المسائل قبل وبعد الحرب الامبريالية العالمية الاولى لقد كان لينين يفرق بين (الامم المظلومة و (الامم الظالمة) ويرى ان النضال الوطني (او القومي) هو نضال «تحالفي» ولا يمكن ان يكون «تجزيئيا» او «انفصاليا» الا على حساب النضال ذاته . ولهذا ، فان مقولة (الطبقة) تفقد الحاحها اذ ذاك وتصبح «تناقضا اساسيا ثانيا» . وفيما بعد ، تمكن ستالين من تعديل

الصيغة الاطلاقية الكئيبة القائلة : « ان النضال الوطني نضال بين الطبقات البورجوازية »وذهب في سنة ١٩٢٩ فى اتجاه تأكيد العمق التاريخي للامة (الشعب، القومية الخ) . وكان ماوستي تونغ قد وصل الى اطروحته الاساسية القائلة بان التناقض الرئيسي هو التناقض بين الامبريالية والامة الصينية ، والتناقض الرئيسي الثاني هو التناقض بين الشعب والاقطاعية . مثال آخر: ان حرب ملك الافغان ضد الانجليز ، في نظر لينين لم يكن يحدد طابعها اطلاقا وضع الطبقة التي تحكم مجتمع الافغان . ونحن لن نستطيع ان نفهم (الحركة الوطنية) في بلادنا ، ما لمننطلق من هذه المقدمات ، وبالتالي فان (الغربلة الطبقية) التي تفهمَ من كلام عبد القادر الشاوي تصبح « تسبيقا » للتناقض الرئيسي الثاني على التناقض الرئيسي الاول . بعبارة اوضح : كان ينبغي اذ ذاك تأجيل النضال ضد السيطرة الاستعمارية الفرنسية لحساب «تصفية طبقية» لا يمكن التنبؤ بنتائجها .

٥) لا اشك في ان الاخ عبد القادر الشاوي قد قرأ شيئا عن « الدور التقدمي الذيتلعبه البورجوازية في عصر صعودها المظفر ». ان هذه الحقيقة لا يمكن ان تكون استثناء مقصورا على عدد « معين » من البورجوازيات . فهذا حكم تاريخي عام . ولكنه بالتحديد تاريخي . بمعنى انه ليس حكما مطلقا ، يستمر في الزمان والمكان رغم تغييرهما . لقد كان هذا ماثلا في الثورة الفرنسية (المضادة للاقطاع) كما كان ماثلا في الثورة الروسية رغم تداخلها العظيم) . بالضبط : اريد ان اقول ان البورجوازية الوطنية ، بالنسبة لبلدان العالم الثالث ـ تاريخيا وموضوعيا ـ وفي فترة النضال ضد الاستعمار، هي اقدر الطبقات استيعابا لهذا النضال وتصعيدا له .

اولا ، لانها تتوفر على عنصر الاحتكاك المباشر . اي بدون واسطة (الصدام الحتمي ما بين مصالحها وسوقها ومصالح وسوق المستعمر)وثانيا ، لانها تكون قادرة ، تحت شروط مستواها المعيشي ، على افراز « طليعة من المتنورين » يستطيعون تعميم وعيها بين الطبقات الاخرى « الاقل وعيا »والاكثر تعرضا للاستغلال ، بواقع انها ،[٩] كطبقة ، تشكل عنصر «استقطاب ثقافي»؛ هذه الطليعة هي التي تتولى انجاز مهمات (الحركة الوطنية) بـدءا من «التنظير» و «التنظيم» وحتى «القيادة» . اما مسألة ارتباط البورجوازية الوطنية بالاستعمار ، بكيفية مباشرة او غير مباشرة ، فان هذا يحدث ، خلال مرحلة النضال ضد الاستعمار ، على مستوى الافراد (الخيـانـات) (« الامراض » البورجوازية معروفة) ولكنه يصبح امرا شاملا للاغلبية الساحقة من هذه الطبقة ، فيما بعد ، وليس دائما ، عندما تصبح السوق الوطنية تحـت هيمنتها الفعلية ، وتطرح امامها امكانيات التسويق في الخارج . اننا نكون واهمين و «مثاليين» اذا اخـذنا مقولة (الطبقة) في بعدها الاحادي، اللامتغير . لقـد كان لينين يستهجن بشدة فعل اولئك الذين « يحولـون التاريخ الى فيزياء مرفوعة الى مرتبة ميتافيزيـاء» . بعبارة اخرى : اننا يمكن ان نكون «ماركسيين حقيقيين» ومع ذلك نعترف بان (الحركة الوطنية) المضادة للاستعمار لم تكن «خدعة» بورجوازية ، بل كانت خطوة هامـة ومحدودة ، في سبيل تحرر فعلي .

٦) ليس الفكر السلفي ظاهرة معزولة عن الاطار الكلي لحركة المطالبة بالاستقلال . كان ينبغي على عبد القادر الشاوي ان يقول بان السلفية كانت شيئا شبيها بـ «ايديولوجيا» الحركة الوطنية . هذا «الوضع» التاريخي كان ضروريا .ولكن الاكثر ضرورة كان تحديدا أن الفكر السلفي الذي يتحدث عنه هو « فكر » علال الفاسي فقط، وفي مرحلة متأخرة نسبيا في تصاعد الحركة الوطنية (١٩٥٢) . في اعتقادي ، ان السلفية ــ داخل اهدافها ــ كانت شبيهة الى حد ما ، بـ «الحركة الزنجية» (سنغـور ــ سيزار ــ داماس ــ بوكمان) كلتاهما كانت «رد فعل ثقافي متعصب» ضد الاستيلاب الاستعماري للانسـان المستعمر (بالفتح) ينطوي على موقـف « سياسـي » وحضاري في آن . يقول دانيال بوكمان : «قبل التحرير الوطني لمعظم البلدان الافريقية كان للزنجية فضل تجميع السود حول قيم كانت محل شك أو سخرية .(....) واذا كان صحيحا ان هذه الدعوة انما استطاعت ان تجمع حولها مثقفين ، فانها شكلت مع ذلك «قوة ضـرب» ايجابية » غير انه موقف كان يتجه الى العزلة . كانت السلفية تقف على اسس (حقوقية ــ دينية ــ مدنيـة) وكان سعيها يسير في اتجاه تطويع الفرد ، اخلاقيـا ، لمصالح الامة ، وينبغي البحث في اصولها العامة عند (الافغاني) و (محمد عبده) و (رشيد رضا) و (مصـالي الحاج) وكل الاسماء التي جسدت في البدايات الاولى للقرن العشرين الاتجاه الليبرالي ــ الديني ، ذي الميولات العلمانية في الثقافة التقليدية ، لقد تنبه (فرانز فانـون) الى ردود فعل (الثقافات الوطنية) واعتبرها كمرحلـة، «فعلا» مشروعا في وجه الهيمنة الاستعمارية الـتي لا تقتصر على الاهداف الاقتصادية فحسب . ومن قبلـه بكثير كان لينين يتحدث عن ثقافة (الامـة المضطهـدة) و «مضمونها التقدمي» ويرى ان ادب تولستوي (رغـم اصلاحيته ونزعيته الدينية) حافظ على «الروح الاصيلة» للامة الروسية (وليس لطبقة دون اخـرى).[١٠] ان فهـم

السلفية ينبغي ان يكون انطلاقا من «وضعها التاريخي» في اطار حركة التحرر الوطني ، ليس قبلها او بعدها («يمكن ان نقول ان الزنجية استجابت للمرحلة الوطنية في التحرر الافريقي» ـ بوكمان) وبالتالي فان الحديث عن«رجعية» السلفية انما ينطبق على فترة متأخرة نسبيا ، عندما فقدت دورها «العلماني» واصبحت عنصرا من عناصر ترسيخ «الثقافة» البورجوازية وبناها الفوقية الاضطهادية (تسخير بعض المضامين الدينية للابقاء على الوضع كما هو) . أما ان الفكر السلفي كان فكرا نخبويا فهذا امر لا شك فيه وهو لا يخرج عن طبيعة الحركة الوطنية ككل ، التي كانت ، في الاصل حركة «طليعة برجوازية متنورة» قادرة موضوعيا على انجاز مهمات المرحلة (الى حد ما) وسوف نكون «حالمين اذا تصورنا انه كان بامكان «الطبقة العاملة والجماهير العريضة من الشعب» انجاز ذلك ، كان لينين يقول: قبل الاطاحة بالاستبداد والنير الاجنبي لم يكن ثمة مجال لنمو «نضال البروليتاريا» . ويقول محمد كشلي : «اما طبقة العمال فهي وان كانت هي الطبقة الاكثر تقدما فهي طبقة محدودة العدد ومبعثرة بفعل الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة وهذا يحد من فعاليتها في الثورة الوطنية» (واضع خطا تحت الثورة الوطنية). ان لينين نفسه كان ينظر الى الحزب البولشفي باعتباره «طليعة ثورية» (نخبة ومع ذلك فان احدا لا يعتقد ان سكان روسيا كانوا كلهم «شيوعيين شرفاء» اريد ان اقول : ان الحركة الوطنية اذا كانت «حركة نخبة» فان كل الحركات (وطنية او ثورية) انما كانت كذلك . وهذا شيء لا يبدو على تناقض مع السير الطبيعي للتاريخ والاشياء انني اتحدث موضوعيا ، ولا اهتم بتحليل الظاهرة في مجموعها ونتائجها .

٧) كانت السلفية تهدف ، نظريا ، الى «تحرير الفرد» على اسس (عقلية ـ دينية) وكانت الحركة الوطنية تحالفا طبقيا مقولتها الاساسية «الوطن» (الوطن التاريخي ووطن المستقبل) . هذا التحالف عند عبد القادر الشاوي ، كان يضم : الاقطاعية ـ البورجوازية البورجوازية الصغرى . مرة اخرى اريد ان اتحدث في موضوع الطبقة والحزب : قبل بلوغ الحركة الوطنية غايتها ، تبلورت في شكل «حزب» يحمل شعار المرحلة كلها (الاستقلال) . في البداية كان الحزب «يحتوي» ، مبدئيا ، كل الطبقات التي وجدت مصلحتها في انجاز الاستقلال الوطني (قبل «الاستقلال» كان هنالك ٨٠٪ من سكان المغرب بدويين ولم يكونوا مسيسين الا بصورة «عفوية») . فيما بعد بدا انه لا «يحتوي» سوى طبقتين : البورجوازية الوطنية ، والبورجوازية الصغيرة . هذه الطبقة الاخيرة لا يمكن اعتبارها ـ كلها ـ «بورجوازية» مائة بالمائة ، وكان ماركس يرد اصولها الى طوائف الفلاحين ذات الملكية العقارية المحدودة ، ولم يكن ينفي عنها نزعتها «التقدمية» سواء في اطار الحركة الوطنية او في اطار الحركة الديمقراطية . ولكنه ، ايضا ،لم يكن مستعدا لاخفاء عيوبها الذاتية . حزب الاستقلال اذن لم يكن (حزب ـ طبقة) وقد اكد ظهور الاتجاه العلماني البورجوازي الصغير بعد انشقاق ١٩٥٩ هذا بوضوح تشكل في (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية) (الجناح اليساري للحركة الوطنية) الذي لم يكن ينفرد ، داخل الحركة ذاتها، باي تأييد فعلي نظرا لضعف سنده الطبقي ، في حين كانت البورجوازية الوطنية قد تمكنت من استيعاب «مغانم» الحركة كلها خصوصا بعد نجاحاتها الشكلية المتوالية (المطالبات) . ان فشل الحركة

الوطنية في ايجاد (حزب ثوري.. كاطار تنظيمي مرشد للجماهير وقائد الطبقة العاملة والجماهير العريضة من الشعب) كان ناتجا ، بعد ملاحظة تأثير التكوين الايديولوجي للحركة ، عن «سياسة العزلة» التي فرضتها الادارة الاستعمارية (اداريا وثقافيا) على مجموع البلاد والا فان البوجوازية (بشقيها) كانت مستعدة ، نظريا ، وحتى انجاز مهمات المرحلة ، على استيعاب «سديمي» لكل الطوائف الاخرى (مع تقديم بعض الوعود) : « ان اهتمامنا ينبغي الا يخص طبقة دون اخرى بل يجب ان يعمل على اصلاح شامل وتحسين كامل لحال الطبقات الاجتماعية بأسرها تحقيقا للتقارب بينها » وهذا لا يخرج عن الاطار الايديولوجي العام لكل حركات التحرر في مرحلتها الوطنية بالتحديد . ان الماركسية تعرف مواقف المفكر الهندي (روي) الذي كان يعتقد (دون استيعاب للظروف الموضوعية للنضال الوطني) ان الحركة القومية ليست شعبية والحركة الشعبية ليست قومية وان هناك من جهة الحركة القومية (البورجوازية) ومن جهة ثانية حركة الجماهير » ، « حركة العمال والفلاحين» . لقد وقف لينين بشدةضد هذا التحريف وأكد ، في كثير من المناسبات ، ان المصلحة القومية هي الهدف العام للنضال الوطني . اننا نفهم فهما رديئا الحركة الوطنية في مرحلة التحرر (وأكرر هذا التحديد دائما) ونخلط خلطا رديئا بين المراحل ، عندما نفترض انه كان مطلوبا منها ان تجند «الكادحين» (وكل هذه العموميات) من اجل «تحديث حزب ثوري» (كأنه كان هناك في الماضي مثل هذا الحزب) . اولا ، اين هي هذه «الطبقة العاملة» التي كانت مهيأة ، تنظيما ونظريا ، لخوض النضال الوطني ؟ وثانيا ، هل يعتقد الاخ الشاوي ان من مهمات البورجوازية الوطنية «تحديث» مثل هذا الحزب ؟

انني أسأل ، وانتظر الجواب .

٨) اكرر ، انني لا ادافع عن اراء السيد علال الفاسي ولا عن الحركة الوطنية (ان «حضورها» في التاريخ اصبح امرا واقعا) ولكنني حاولت فقط ان افسر الموضوعات السابقة من وجهة نظر الماركسية ـ اللينينية كما افهمها . وفوق ذلك ، فانني كنت اتمنى دائما ان افتح حوارا ماركسيا حول المسألة الوطنية المغربية ، اذ لاشك ان هذا الحوار اذا ما اتسع ، فانه سوف «يضع» نقاطا جديدة فوق «الحروف المهملة» .

ابراهيم الخطيب

المراجع :

(١) الماركسية والمسألة القومية الياس مرقص) ـ دار الطليعة

(٢) الماركسية والمسألة القومية (جورج طرابشي) ـ دار الآداب .

(٢) فصول من (عفوية النظرية في العمل الفدائي) الياس مرقص ـ دار الحقيقة .

(٤) الزنجية ـ جون افريك (حوار مع دانيال بوكمان اجراه جي هينيبل)

(٥) من اجل ثورة افريقية ـ فرانز فانون (ماسبيرو)

ملاحظات حول مقال الاخ الخطيب

عندما يؤكد الاخ الخطيب على «الدور التقدمي» النسبي للبورجوازية وينفي ضمنيا ضرورة الصراع الايديلولجي ضدها ، **وعندما يصرح ان البورجوازية هي «اقدر الطبقات على استيعابوتصعيد النضال ضد الاستعمار» متناسيا حتمية وواقع اجهاضها له كما تدل على ذلك عشرات التجارب** ، عندما **يطمس ضرورة قيادة البرولتاريا للتحالف الوطني الواسع في الثورة الديمقراطية ـ الوطنية وينفي الضرورة التاريخية للاستقلال الايديولوجي والسياسي للبرولتاريا ضمن هذا التحالف ، مع العلم ان هذا التحالف العريض ذاته ليس قانونا مطلقا وضروريا في كل ثورة**)، عندما ينفي مثل هذه المبدئيات الاساسية في الماركسية ـ اللينينية في زمن الامبريالية فانه لا يعود «يدخل في مشروعه» غير **ترتيب مفاهيم خاطئة** .

المدلول العملي لترتيب الكلمات هذا هو طمس الطريق في انتظار قيام البورجوازية بدورها التقدمي الذي اتضح عجزها عن القيام به وحدها بدون خط ثوري ومدثوري هي اعجز عن افرازهما بحكم واقعها المركنتيلي **المستفيد جزئيا من الاوضاع القائمة ، وبحكم خطها البرلماني وبحكم مثاليتها** التي يحاول عبد القادر الشاوي نقدها بالذات .

ان الاخ الخطيب يستغل مواقف التحالف الواسع التي التزم بها الزعماء الماركسيون ليطمس جدلية هذه المواقف التي كان العنصر الاساسي فيها هو شن الصراع الايديولوجي الدائب ضد افكار وخط البورجوازية الوسطية وضمان قيادة الحزب الشيوعي الصيني او حزب العمل الفيتنامي للثورة الديمقراطية ـ الوطنية . (انظر الديمقراطية الجديدة لماوسي تونغ).

ولنبسط للاخ الخطيب حقيقة اساسية وهي ان **المهمة التاريخية لماركس ولينين وماوتسي تونغ لم تكن الافراط في الدفاع عن «الدور التقدمي النسبي للبورجوازية «يقدر ما كانت اساسا المراجعة النقدية الصارمة للتراث الوطني البورجوازي ذاته ونقد وفضح** الرأسمالية والامبريالية وبناء أحزاب البرولتاريا **وانجاز الثورة ووضع اسس الثقافة الجماهيرية الثورية على انقاض الغيبية والسلوكية والفردية التي تشكل بعض خصائص الفكر البورجوازي بما فيه السلفية** .

وعلى هذا الغرار فان ثلاثين عاما او يزيد من احتكار البورجوازية الوسطية لقيادة الحركة الوطنية عندنا نحو المازق او الاجهاض كافية لتجعل من قلب تربتها الايديولوجية بصرامة ومجادلة احتكارها القيادة (الرسمية على الاقل) لحركة الجماهير مهمات السياسة أولية لا يمكن تلبيدها بضباب الدور التقدمي النسبي للبرجوازية الذي لا ينكره أحد .

حقا أن الجانب التقدمي من ثقافة الامة المضطهدة» أو في هذه الحال تقدمية السلفية في ظل الاستبداد الاقطاعي والايديولوجية الخرافية والفكر المظلم امر لانزاع فيه . لكن هذا لا ينفى ضرورة ومهمة نقدها كفكر مثالي ـ سلوكي ـ فردي مطروح تجاوزه ضمن تجاوز القيادة المتذبذبة لحركة الجماهير .

لا شك أن الاخ الشاوي يبالغ في بعض تعابيره وافكاره ولا يعطي الحظ اللازم لمسألة وضع الفكر السلفي في الاطار التاريخي للحركة الوطنية » التي مثل ايديولوجيتها الى حدما · وهذا ما يجعله يستعمل عبارات مفرطة وخاطئة مثل « احزاب رجعية » و « لعبة بورجوازية » لكن الذي يهمه هو نقد الايديولوجية السلفية وخصائصها كفكر ومنهج سياسة معينة وذلك من منظار المادية الجدلية · ورغم أن البورجوازية الغربية وفكرها شديدا العقلانية فان الثرات الماركسي حافل بمؤلفات مثل « ضد دوهرينغ » و «الايديولوجية الالمانية»و «الرأسمال» ذاته وكلها تتوجه بالنقد اللاذع للمثالية الغربية · ولا نعتقد أننا في الوطن العربي في غير حاجة الى نقد الفكر البورجوازي الذي يكيل لنا « السلفية » والاشتراكية العربية وغيرهما فضلا عن الفكر الخرافي ·

نأخذ على الاخ الخطيب أنه لم يناقش الفكر السلفي كفكر من زاوية الماركسية وقفز الى البحث عن حجج سياسية تتعلق بدور البورجوازية في التحالف الوطني المعادي للامبريالية والرجعية ، وهو أمر أخطأ فيه كثيرا كما أوضحنا بايجاز ·

وأخيرا نحيي الاخ الخطيب على هذه المبادرة « من أجل فتح نقاش ماركسي في الحركة الوطنية » ، وهو نقاش حيوي من شأنه أنيوفر مراجعة نقدية لايديولوجية الحركة الوطنية ويبرز بعضا من جوانب النضال البطولي للجماهير الشعبية ، ويوضح معالم طريق التحرر ، ولا شك أن مجلة « أنفاس » ستعمل على توسيع هذا النقاش ·

علي الحمراوي



في ذكرى ٢٠ غشت لاندلاع المقاومــة :

تساؤلات وملاحظات بخصوص تاريـخ

النضال التحرري في المغرب

سعيد البربوشي

عندما تحل مناسبة من المناسبات ذات الارتباط بتاريخ الحركة النضالية في المغرب (كاندلاع المقاومـة حرب التحرير الخطابية – وثيقة المطالبة بالاستقلال – استشهاد فرحات حشاد – اغتصاب فلسطين – الخ ..) يصبح التساؤل عن مدى قيام الحركة الوطنيـة بدراسة هذا التاريخ من خلال منظار تقدمي ، اكثـر الحاحا .

ضرورة كتابة تاريـخ الحركـة

وغير خاف ان اهمية هذه المسألة : مسألة اعتناء الحركة الوطنية المغربية بتجربتها النضالية هي بالذات انما تنبع من تلك الروابط الصميمة التي تربطهـا بمتطلبات العمل النضالي الجوهري الذي الت على نفسها ان تضطلع به ، وباهداف هذا النضال ومراميه .

ان تاريخ الكفاح الوطني ، هو حصيلة ثمينة للعمل الجماهيري تراكمت عبر سنين طويلة في البذل والعطاء السخيين ، وليس من الجائز بالقطع ترك هذه الحصيلة للضياع ، وهو ايضا عامـل لشحـد العمـل النضـالي الجماهيري المتلاحق وتقويته ليحقق اهدافه الجديـدة على اكمل صورة ممكنة .

اجل ان من مهام الحركـة الوطنـية المغربـية ان تحرص على اغناء تجربتها النضالية بدون هوادة وان توثق الصلة ما امكن بين كفاح الجماهير في الوقـت الراهن وبين كفاحها التاريخي وان تشد الاجيال المغربية الصاعدة شدا ايجابيا محكما الى تراث ابائها واجدادها النضالي .

وانه ليمكن القول بان برنامجا نضاليا تخطه حركة نضالية تحررية ما ، لا يتضمن في جانبها الايديولوجي اهتماما جديا وعلميا بالتاريخ النضالي للشعب الـذي تنتمي اليه تلك الحركة ، وبتقاليده وبطولاته الكفاحية وبتضحياته وعطاءاته الوطنية لهو برنامج ناقص يحق الارتكاز عليه في اعتبار الحركة صاحبته حركـة تامرة وغير مؤهلة لقيادة النضال الجوهري ما لم تتـــدارك الخطأ وتقوم بالتصحيح .

واذن فان مكانة التاريخ النضالي لشعب ما داخل برنامج حركة وطنية ، هو في المعايير الاساسية لمعرفة هذه الحركة والحكم عليها .

فهل والحالة هذه قامت الحركة الوطنية المغربية - وبالاصح الحركة الوطنية التقدمية المغربية بدراسة وتقييم ونقد ثرات الكفاح الوطني المغربي على نحو مماثل او مقارب لما نجده عند حركات تقدمية اخرى ؟

هل حرصت الحركة التقدمية المغربية على بقاء بطولات وتضحيات الجماهير عبر ظروف الكفاح حية امام الاجيال التي حالت حادثة السن دون معايشتها لتلك الظروف ؟ وهل عنيت الحركة التقدمية باثراء تجربتها الذاتية عن طريق استخلاص الدروس في التاريخ النضالي لجماهير الشعب ؟ وهل حفلت بشرط من شروط الحفاظ على الكيان الذاتي للشعب الذي تنتمي اليه ؟ وهل سعت الى افادة الحركات المماثلة بخبرتها مدروسة ومستخلصة من جماع تاريخ شعبها النضالي ؟

ضعف الجهود

ان مما يؤسف له ان كان للاسف محل ، ان لا يحظى النضال الجماهيري المغربي قديمه وحديثه «بأي» اعتناء من طرف الحركة التقدمية الوطنية المغربية .

صحيح ان السنوات القلائل الاخيرة قد عرفت بعض الدراسات والمقالات الخاصة بجانب من جوانب الكفاح التحريري في المغرب ولكن ينبغي الا ننسى ان هذه الاعمال لا تخرج عن اطار المحاولات والمبادرات الفردية، تستمد علاوة عن الرؤية الموضوعية ، الحقائق والمعلومات الضرورية ، ثم ان هذه الاعمال لم تمس الا بعض الجوانب من جوانب تاريخ الحركة الوطنية ، ولم يأت صدورها في اطار تصميم شامل يتعلق بدراسة تاريخ الحركة الوطنية ، وبوعي مسبق بالمغرض من وراء انجاز هذا التاريخ حقيقة ان هذه الاعمال على قلتها وطابعها الفردي وعفويتها حتى قد ابادت بعض الافادة ، ولكن ليست هي الاعمال المطلوبة بالمقطع .

ومن جهة ثانية ان عدم وجود الاعتناء اللازم بتاريخ الحركة الوطنية وتجاربها ، ساعد لا على ان يتعرض هذا التاريخ للنسيان والضياع ، بل وان يعاني من التحريف والتشويه والاختلاق المغرض .

ونتيجة لهذا اخذ «تاريخ نضالي» غريب من صنع «دجالين ومرتزقة يظهر ليحل محل تاريخ حقيقي، تاريخ تظافرت عوامل على ان ينزوي في الظل . وقد جاءت هذه العملية لتفصح عن تفطن خصوم الحركة التقدمية لفعالية ونجاعة الذاكرة النضالية» ، للجماهير وعن تقديرهم لاهمية هذه الذاكرة .

وينبغي ان يذكر هنا ان في الوقت الذي يظل فيه عدم الاهتمام الجدي الطابع المميز للحركة التقدمية في المغرب بخصوص تجربة النضال الشعبي ، تحظى هذه التجربة باهتمام خاص من طرف حركات ثورية بارزة ، «الصين - كوبا»

ماذا وراء الاهمال ؟

فهل من تفسير لهذا التصرف ؟ وكيف يفهم ان يبقى تاريخ النضال الجماهيري على هامش برنامج العمل اليومي للحركة التقدمية الوطنية المغربية ؟ ايعني هذا ان هذا التاريخ خلو من العطاء او ان عطاءه الممكن بالنسبة للحركة في المرحلة الحالية قليل ؟ ام يعني

ان الحركة الوطنية تفتقد ادوات وشروط القيام بمهمة الدراسة المطلوبة فى هذا المجال؟ ام ان الامر يدل على ان الحركة التقدمية لا تعير كبير اهتمام على الجملة للمسائل المرتبطة بالجانب الايديولوجي ومن بينها تجربة النضال الوطني؟ ام ان تفسير الامر يكمن في تشابك الموضوع وتعقده ووجود ملابسات خاصة تجعل معالجته في الوقت الراهن على النحو المنشود ذات صعوبة خاصة ؟ ام تعليل ذلك راجع الى ان قيادة الحركة لا تتوفر على رؤية تاريخية شاملة ، حتى تنظر من خلالها الى كفاح الشعب التاريخي ؟ او ان برؤيتها نقصا لا ترغب في ان يفتضح ومن هنا تفضل مجانبة الموضوع ؟ في الواقع ان التيار المهيمن والمعبر رسميا عن الحركة التقدمية في المغرب لا يعير كبير اهتمام للنضال الايديولوجي عموما ، ويزداد هذا الاهتمام ضآلة وانكماشا لحد الانعدام كلما تعلق الامر بتاريخ الحركة الوطنية ، وخصوصا بالجزء الذي ساهمت فيه عناصر التيار المذكور وقادته .

ان التيار الرسمي للحركة التقدمية ما فتيء يأخذ في العمل النضالي بمبدأ العفوية ويذر كل نظرية ../.. تمكنه من الرؤية العلمية الشاملة الا النظرية التي تعطيه وتبرر له اسلوب التجربة والخطأ في العمل ؛

وازاء التجربة النضالية للحركة الوطنية ، يلاحظ ان ذلك التيار يشعر ويتصرف كما لو ان الامر يتعلق بشيء بالغ التقديس وبالغ الحرمة «طوطم» او «تابو» ويجد القادة الرسميون للحركة انفسهم – عن حق – عاجزين عن عزل نظرتهم لكفاح الجماهير التاريخي عن نظرتهم للكفاح المعاصر ، ذلك لان الامر في جوهره يكون تجربة نضالية واحدة وما يدفع او يمنع بالنسبة للقديم ذو ارتباط صميمي بالجديد .

ان نقطة الضعف هذه موعاة في طرف عناصر غير قيادية في الحركة التقدمية المغربية ولطالما ودوا لو تأتي لهم التخلص منها ومجاوزة اثارها ؛ وكان من نتائج هذا نشوب مشاكل هي بدورها جزء مما ينبغي ان يدرس ويقيم .. وتجد تلك النقطة تفسيرها من غير شك في ظروف الحركة الوطنية التاريخية وفي الهوية الطبقية لقيادة هذه الحركة ، وفي الافكار الاديولوجية التي هدت عملها :

مراحل الحركة الوطنية

لقد كان الكفاح المسلح لمنع دخول الاستعمار بقيادة قسم من الاقطاع ، وكان هذا القسم يهتدي ويسترشد بالدين لمواجهة غزو النصارى الدخلاء ، وقد كانت وحدة وطنية نادرة هذه التي جمعت الاقطاع مع باقي القوى الاجتماعية الاخرى على خط نار ضد الاستعمار الذي اغتصب السيادة والارض والخيرات . ولم يستطع الاستعمار اجبار الحركة الوطنية على ان تتخلى عن كفاحها المسلح الاسنة ١٩٣٤. اي بعد مضي قرابة ربع قرن على الوجود الاستعماري . وقد كانت هذه المدة كافية لحدوث تغييرات في البنية الاجتماعية وفي العلاقات الاقتصادية، وهكذا تبلورت «طبقة وسطى» فبادرت بقيادة النضال الوطني انطلاقا من المدن ، وكانت هذه الطبقة تمتلكها المباديء الدينية والافكار الليبرالية وتحاول ان توفق بينها ، ولان الطبقة العاملة كانت حديثة النشوء بحدوث الصناعة ، ولان الفكر العلمي الذي يعبر اصدق تعبير عن مصالحها ، كان هذه المدة يجتاز فترة حرجة من جراء الجمود لم تتمكن

«الطبقة الصاعدة من لعب دور فعال في هذه الفترة من الكفاح .

وظلت البورجوازية الوطنية تزاول قيادة النضال زهاء عشر سنوات قبل ان يحدث انقسام في صفوفها، انقسام مبعثه الاختلاف حول اسلوب العمل ووسائله . كانت الفئة العليا والوسطى من البورجوازية تلقى في الاسلوب السياسي وفي منابر المنظمات الدولية ، وعقد الندوات الصحفية واصدار البيانات والبلاغات ، وتقديم الوثائق والعرائض ما يكفي لانجاز هدف التحرير . في حين كانت الفئة الدنيا من البورجوازية ترى ان الاستعمار لا يمكن ان يخرج الا عن طريق الكفاح المسلح ولقد كانت سنوات ٤٨ ــ ٥٣ فترة صراع حاد بين الاتجاهيين المتعارضين، ربما كان من المقدر لهذا الصراع ان يدوم مدة طويلة لولا ان جاءت الاحداث لتحله فى صالح الاتجاه الثاني (اعتقال اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال ــ نفي محمد الخامس) وقد اتيح لذلك الصراع ان يستأنف من جديد بعد اعلان الاستقلال السياسي، وذلك لتناقض الموقف من مشاكل بناء الاسقلال وكيفية حلها. وتطور هذا الصراع هو الذي ادى في نهاية المطاف سنة ٥٩ الى ظهور حركة «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» بعد اعلان الانقسام في حزب الاستقلال .

لم يكن في وسع قيادة حركة المقاومة وجيش التحرير المنحدرة من وسط بورجوازي صغير والمحدودة التكوين ، تعي المشكل الاديولوجي ، عندما بدأت تقود الكفاح التحريري . لقد جاءت للعمل ، وكان «الكلام» و «النقاش» هما اول ما ينبغي رفضه . الا ان تطور الاحداث سرعان ما فتح اعين القيادة الشابة على ان ليس كل «الكلام» يجب ان يرفض . لكن اين هم اولئك المؤهلون نظريا وثقافيا لقيادة حركة النضال القائمة آنذاك على الصعيد الفكري والاديولوجي ؟ .

وينبغي ان يذكر هنا «للحقيقة والتاريخ» ان الحركة الوطنية المسلحة حينما شعرت باهمية الجانب الفكري في الكفاح اتصلت باحد العناصر المثقفة ، وهو عنصر قيادي في الحركة التقدمية اليوم، برغبة الالتحاق بصفوفها ليقوم بدور القيادة السياسية الفكرية ، لكن ذلك العضو رفض الاستجابة .

ومن جهة اخرى فقد كان الحزب الشيوعي بظروفه التاريخية ومواقفه الذاتية معزولا عن نضال الجماهير المخاض، وقد بينت الاحداث انه لم يكن التنظيم المؤهل تاريخيا حقيقة لقيادة كفاح الجماهير نحو انجاز اهدفها في التحرير رغم الفراغ الموجود انذاك .

ولم يتح للكفاح الوطني المسلح ان يطول . اذ اعلن عن الاستقلال ، فوجدت الحركة الوطنية نفسها امام مشاكل ومناورات استنفذت جهدها وشعرت قيادة الحركة حقا انها لم تكن مؤهلة لمواجهة هذا النوع من المشاكل والمناورات . وكانت النتيجة انها خسرت كثيرا من مواقعها منذ البداية ثم ما لبثت ان انتقلت الى الخط الثاني لكي تستأنف النضال .

ولم تعد قيادة الحركة الى نفسها والى تجربتها لتقوم بما يجب ان يقام به : الدراسة والتقييم واستخلاص الدروس وتعميمها . وكان منها آية على ان الاخطاء المدمرة لابد ستتوالى .

وقد يصح القول ان وقوع قيادة الحركة الوطنية في خطأ ترك تجربة ٥٥ ــ ٦٠ بلا نقد وتقييم وتمسكها بهذا الخطأ قد ركز اساس تصرف يميني بالغ الخطورة بقيت الحركة التقدمية اسيرة له فيما بعد . وهو مجانبة كل تجربة نضالية داخلية ، وتحاشى ممارسة النقد الذاتي

مهما تبلغ اهمية موجباته . ويكفي مثالا على هذا ان قرار استئناف الوحدة داخل الاتحاد الوطني الذي اعلن عنه في مثاب شهر غشت من سنة ٦٧ ـ لم يصحب باي شرح تقييمي ولم يترك فيه للمناضلين حق القيام بالنقد والنقد الذاتي . مما افقد هذا القرار محتواه الايجابي وابطل بعاليته النضالية في الاخير .

بعد كل هذا يمكن ان نستخلص :

ان بقاء تاريخ الحركة الوطنية في غير دراسة مظهر وعامل ، مظهر من مظاهر ضعف القيادة التي هيمنت على الحركة ، وعامل من عوامل اخطاء الحركة في ذات الوقت . ومبعث هذا الضعف ان القيادة لم تكن في مستوى المهام التاريخية التي فرضتها ظروف كفاح قاس ومعقد . وانها لم تدعم من قبل مثقفين ثوريين يمكنهم ان يضطلعوا في النضال في الواجهة الايديولوجية ويجعلوا من انفسهم معبرين عن نضال الجماهير التاريخي . لكن ينبغي ان يلح كذلك على ان كثيرا مما يقال في هذا الصدد هو كلام ما قبل الدراسة المطلوبة ان الدراسة الموضوعية المستندة الى التخطيط والقائمة على الوثائق هي التي من شأنها ان تبرر اهمية التجربة النضالية المغربية ، عموميتها وخصوصيتها ، وان توضح بما لا يبقى معه مجال للغموض : لماذا لم تعن الحركة الوطنية المغربية بدراسة تاريخ النضال التحريري في المغرب ؟

الشعـــر ســـلاح لامـــرئـــي

قراءة جديدة في شعر البيـــاتي

عبد العزيز شــرف ـ القاهرة

رغم ان علماء الاجتماع يقولون بان احتياجات الانسان تنحصر في : الطعام والنمو والمأوى والاشباع الجنسي الا ان الانسان يحتاج دائما الى الرغبة الملحة فـي تحقيـق الـذات من خلال الفـــن وقـــد تكـــون الحياة الطبيعية على حد تعبير «هوبز» : «حقيرة حيوانية قصيرة» ولكن الانسان كان يتميز دائما على الحيوان باضطراره الغريزي لان يخلق عملا فنيا جميلا من تجاربه يتمثل فيه ادراكه لاشكال أكثر منه نقاء .

ويحدد العالم النفساني «يونج» نظريته عـــــن الظواهر النفسية بوجود ما اسماه «اللاوعي الجمعي» ويرى انه مستودع تتوارثه الاجيال يشتمل على صور مترابطة وزخارف لطيفة كثيرة تكمن لا شعوريا فـــي نفس كل انسان ، وهو يؤمن بان هذا التراث المتوارث يفسر تردد هذه الصور نفسها مرة بعد مرة في الاحلام والاساطير والفن التخيلي. وترى اليزابيت(١) ان ايجاد برهان على وجود «اللاوعي الجمعي» قـد يكـــــون امرا بعيد الاحتمال ، ولكن الشيء المؤكد اننا يمكن ان نسمي الادب بحق : السجل المكتوب للوعي الجمعي الانساني . لقد قال د. هـ. لورنس :الانسان اعظم تقحم في مجال الشعور . ولدينا تراث يرجع تاريخه الـــى آلاف السنين يصور هذا الشعور النامي المتطور لدورنا على اوراق البردي والجلود مدقوقا خــلال الخمسمائة سنة الاخيرة في صورة الكلمات المطبوعة .

وليس ثمة شك في ان تعريفات الشعر التي قدمت على مر العصور منذ كان : «الشعر هو القول الموزون المقفى الذي يدل على معنى (٢)» ، انما تبين مفهـــــوم الشعر في كل عصر بل عند كل شاعر من شعراء ذلـك العصر ا الا ان الذي لا شك فيه كذلك ان التعريفات التي قدمت للشعر كانت تغفل قيمة عناصر جوهرية بدونهـا لا يكون الشعر شعرا ، وان كانت تضع ايدينا على فارق اساسي بين الشعر وغيره من فنون القول من ناحيـة الشكـل .

اليزابيت دورا : (الشعر كيف نفهمه ونتذوقه)

(٢) نقد الشعر : ص ٧.٢

وقد حاول شعراء العصر ان يضعوا ايديهم على ذلك «الشيء المفقود» في تعريف الشعر ، فنجد الاستاذ عباس محمود العقاد يقصد ان يحصر الشعر في تعريف محدود على اساس ان من اراد ان يحصر الشعر في تعريف محدود كمن يريد ان يحصر الحياة نفسها فـي تعريف محدود ، ذلك لان الشاعر ينبغي ان يتقيد بمطلب واحد يطوي فيه جميع المطالب وهو التعبير الجميل عن الشعور الصادق (٣)

ويتأثر الغربيون في تعريف الشعر بتعريف ارسطو للشاعر بانه «الخالق MAKER ذلك ان الكلمات التي يسمى بها الشعر في اللغات الاوربية الحديثة مأخوذة من الكلمات اليونانية القديمة POETICE, وهذه الكلمة الاخيرة بدورها مشتقة من الفعل اليوناني POIEIN ومعناها : يعمل او يصنع او يخلق ، وعلى هذا الاساس يجيء معنى الشعر الاشتقاقي: الخلق او الابداع، ومع ذلك نرى الفيلسوف الاول ارسطو طاليس يرجع الشعر والفنون الاخرى كافة الى ما يسميه بالمحاكاة : « اي محاكاة الطبيعة وواقع الحياة بشتى الوسائل التـــي تملكها الفنون المختلفة وهي في حالة الشعر الفنون والموسيقى .

ومن المحدثين من يرى ان الشعر : « نقد الحياة » والكشف عن القيم التي يراها الشاعر في هذه الحياة او في جزء منها يهتم به الشاعر . ويصف شيلر الشعر بانه «خير كلمات صنفت في خير نظام» ويذهب اليوت الى ان الشعر هو «الاحساس الذي يتذكره الشاعر في هـدوء» : تعريف خاطيء لان الشعر ليس في الاحساس ولا في التذكر ولا في الهدوء .. انه عملية تجميع لخبـــرات مختلفـة على الاطلاق .

من ذلك يتضح ان ثمة ثنائية توجد بالضرورة فـي اساس الابداع الشعري نفسه وفي اي تحليل يتصدى له . فللشاعر طبيعتان : انسانية وفنية ، والشعر عمليـــة تختلط فيها الحياة باللغة ويتزاوج فيها المعنى والمبنى .

واذا كان الوجوديون قد اكدوا الا قيمة للشكـل من حيث هو كشكل ، اذ ان الاسلوب وسيلة لا غاية ، فلا قيمة لجمال ليس له مضمون اجتماعي ملتزم. الا ان سارتر استثنى الشعر من الالتزام كما يستثني فنـون النحت والرسم والموسيقى لان صورها الفنية غير صالحة للالتزام في ذاتها (٤) الا ان مايكوفسكي شاعر الثورة الروسية دعا الى اتجاه جديد في الواقعية الاشتراكية في اعقاب الحرب العالمية الاولى يرمي الى التزام الشاعر برسالة اجتماعية، وعنده ان الشاعر الغنائي ذو رسالة اجتماعية واقعية محددة . والشرط الاساسي لانتـــاج الشاعر هو «ظهور مسألة من مسائل المجتمع لا يتصور حلها الا بمساهمة الشعر . ان ذلك تحديد جديد لنـوع التجارب في الشعر الغنائي – حسب قول مايكوفسكي – يجب ان تتجاوب التجارب في الشعر الغنائي مع الوعي الاجتماعي لجمهور الشاعر . وفي هذه التجربة لا يظهر الشاعر ذاتيا محصنا ، بل يكون وعيه مرآة للمجتمـع وما يشغله من امور عامة. وقد طبق مايكوفسكي دعوته في الشعر الحر وثار فيه على تقاليد الاوزان القديمـة.

(٣) مقدمة «وحي الاربعين» ص ٦ وما بعدها
(٤) سارتر : ما الادب . الفصل الاول

وحوالي سنة ١٩٣٥ صدر صدى هذه الدعوة في فرنسا بين الشعراء الغنائيين الذين ذاقوا ذرعا بالقطيعة بينهم وبين جمهورهم . وقد ظهر اثر ذلك في الشعر العالمي الحديث في اختيار نوع خاص للتجارب وفي الموضوعية وفي التعبير عن الوجدان الاجتماعي اما عن طريق وصف الموقف وصفا موحيا أو في عنصر قصصي .

وعند عبد الوهاب البياتي نجد ثورته في الشعر العربي لا تجعل منه انعكاسا للواقع بل هو ابداع الواقع. «ذلك ان الثورة فن او بالاحرى شعر (٥) » وهو في ذلك يلتقي مع الرسام التشيلي المعروف روبر كومتي في قوله:

«ليس الفن ترفا. انه حاجة. انه امنية ، امنية اللاموجود والوسيلة لتحقيق هذه الامنية . الثورة شعر والانسان الكامل شاعر . واقصد بالشعر المزيد من الواقع ، من النور ، من الشعور ، من الخيال ، خيال الشعب المبدع . الشعر سلاح لامرىء «حرب عصابات» داخلية في النفس على الاعراف والمصالح الذاتية المصطنعة والرياء في النقد الذاتي «حرب على الافكار الاتفاقية المتبذلة .. في سبيل الذكاء المبدع ».

الشعر عند عبد الوهاب البياتي اذن كما قال ذات يوم : نوع من العبادة يحميه من الضياع أو التعرج او السقوط. نوع من الطهارة ودفاع عن النفس ضد الموت العارية بدونه تصبح الحياة لا مبرر لها .

فاذا كانت الثورة هي عبور من خلال الموت ، فالانسان اذن يموت بقدر ما يولد ، ويولد بقدر ما يموت وعملية الابداع الفني – التي هي عبور من خلال الموت – هي ثورة بحدذاتها ، للاستئثار بالحياة ، وهي مرتبطة بالابداع التاريخي – على اننا كما يقول ريجي دوبريه في كتابه «ثورة في الثورة» :

«لايمكن لنا ابدا ان نكون معاصرين مائة بالمائة لزماننا الحاضر ، فالتاريخ يتقدم مقنعا : يدخل الى الفصل الجديد بقناع الفصل السابق ، فلا نعود نتعرف على شيء في المسرحية عند رفع كل ستار ، يجب اعادة ربط الخيوط ، وليس الخطأ في هذا خطأ التاريخ بل خطأ نظرتنا المشحونة بالتذكارات والصور التي التقطتها في الماضي . فنحن نرى الحاضر كطبعة ثانية للماضي حتى ولو كان هذا الحاضر ثورة ».

ذلك ان – كما يقول البياتي – الثوري والشاعر يخلقان (انسانا وشعر – المستقبل) لانهما عندما يبدعان الواقع ويعيدان خلقه لا يبدعانه او يعيدان خلقه ، أو يغيرانه ، لكي يقعا في شركه ، ويصبحا انعكاسا له في صورته الجديدة بل لكي يتخطياه ويتجاوزاه الى المستقبل .

في ديوان «سفر الفقر والثورة» نجد عند البياتي صورة عظيمة لمأساة البطل الملتزم وهي صورة ذات وجهين ، وجهها الاول يتمثل في «عذاب الحلاج» والوجه الاخر في «محنة ابي العلاء» .

في «عذاب الحلاج» يبدأ الجزء الاول من القصيدة «المريد» ليرينا البطل وقد كف عن مسيرته العادية متلهفا الى حياة من نوع اخر لم يتبينه بعد :

---

(٥) البياتي : تجربتي الشعرية ، ص ٥٩

«سقطت في العتمة والفراغ
شربت من آبارهم
تلطخت روحك بالاصباغ
اصابك الدوار
تلوثت يداك بالحبر وبالغبار »

ثم يقول الشاعر لبطله الحزين :

« وها انا اراك عاكفا على رماد هذي النار
صمتك : بيت العنكبوت ، تاجك : الصبار
ياناحرا ناقته للجار
طرقت بابي بعد ان نام المغني
بعد ان تحطم القيثار
من اين لي؟ وانت في الحضرة تستجلي
واين انتهى ؟ وانت في بداية انتهاء ..»

وما تلبث الرؤيا الواقعية ان تمتزج بالوجدان الصوفي في «رحلة حول الكلمات» :

« ما اوحش الليل اذا انطفأ ما المصباح
وأكلت خبز الجياع الكادحيين زمر الذئاب
وصائدو الذئاب
وخربت حديقة الصباح
السحب السوداء والامطار والرياح
اوحش الخريف فوق هذه الهضاب
وهو يدب في عروقي شجر الزقوم ،
في خمائل الضباب
يامسكري بحبه
محيري في قربه
يامغلق الابواب
الفقراء منحوني هذه الاسمال
وهذه الاقوال
فمد لي يدك عبر سنوات الموت والحصار
والصمت والبحث عن الجذور والابار »..

وفي المحاكمة تصبح الثورة شعرا ، ذلك ان الانسان الثوري هنا يقف بتحد وشموخ امام قدره :

«.. بحت بكلمتين للسلطان
قلت له جبان
قلت لكلب الصيد كلمتين
ونمت ليلتين
حلمت فيهما نانى لم اعد لفظين
توحدت
تعانقت
وباركت ـ انت انا ..»

وهو يتحدى قدره في المنفى والملكوت ، وهو يعلم انه محكوم عليه بالموت قبل الف عام :

«.. وها انا انام
منتظرا فجر خلاصي ، ساعة الاعدام »

وفي «رماد في الريح» يصور البياتي انتصار الحلاج على قدره عندما يقول :

« عشر ليال وانا اكابد اهوال

وأعتلي صهوة هذا الالم القتال
اوصال جسمي قطعوعها
أحرقوها
نثروا رمادها في الريح »..
الى ان يقول في الختام :
« أوصال جسمي اصبحت سماد
في غابة الرماد
ستكبر الغابة ، يامعانقي
وعاشقي
ستكبر الاشجار
سنلتقي بعد غد في هيكل الانوار
فالزيت في المصباح لم يجف ، والموعد لن يفوت
والجرح لن يبرأ والبذرة لن تموت ».
ستكبر الاشجار

ومن خلال هذه القصيدة يلخص لنا البياتي مفهومه للشعر وكيف ان الثورة « عبور من خلال الموت » فالانسان يموت بقدر ما يولد ويولد بقدر ما يموت ، فعملية الابداع الفني التي هي عبور من خلال الموت «هي ثورة بحد ذاتها للاستئثار بالحياة وهي مرتبطة بالابداع التاريخي» وذلك ايضا ما يؤكده الوجه الثاني من الصورة في محنة «ابي العلاء» يقول البياتي:

«.. لمن تغني هذه الجنادب ؟
لمن تضيء هذه الكواكب ؟
لمن تدق هذه الاجراس ؟
واين يمضي الناس
هذا بلا امس وهذا غده قيثارة خرساء
داعبها ، فانقطعت اوتارها ولاذ بالصهباء
وذا بلا وجه ، بلا مدينة، وذا بلا قناع
أشعل في الهشيم نارا وانتهى الصراع
وذا بلا شراع
ابحر حول بيته وعاد
حياته رماد ..»

وهكذا يبتعد البياتي بالشعر العربي عند حدود الغنائية والرومانسية ، التي تردى فيها ، كما اكد قدراته التصويرية في «عذاب الحلاج» و «محنة ابي العلاء»وهو الامر الذي يختلف في «موت المتنبي» التي عولجت بأسلوب قصصي كما سنرى ، فالحلاج قناع يتحدث من خلاله الشاعر بنفسه ، وهو الصوفي الذي أصبح معلما للفقراء ، وفي هذه العبارة يمكن «مفتاح» القناع الذي اتخذه الشاعر ليعبر عن مأساته هو ليصبح البياتي ـ الحلاج صلب من الف سنة ، (٦) بعد ان ضرب بالسياط وقطعت يداه ورجلاه وصلب وفصل رأسه ثم احرقت اشلاؤه بالنار والقيت بعد ذلك في مياه دجلة.

واختيار البياتي لابي العلاء ومحنته اختيار شاعر متمرد يتخذ من الكلمة سلاحا لامرئيا في تمرده وثورته ومن هنا يتأكد لدينا ان محنة ابي العلاء كانت قناعا لتصوير محنة الشاعر الثوري . يقول البياتي :

(٦) في سنة ٣٠٩ هـ

«.. كأن زماناً داعراً ياسيدي، كان بلا ضفاف
الشعراء غرقوا فيه ، وما كانوا سوى ضراف
وكنت انت بينهم عـراف
وكنت في مأدبـة اللئام
شاهد عصر ساده الظلام
قافية الهمزة كانت بغلة عرجاء
يركبها الامير كل ليلة ليلاء
كل القوافي اصبحت ياسيدتي كالبغلة
العرجـــاء
كان زمانا داعرا ، كان بلا حيـاء »

وبعد ان يبحث عن سحابة خضراء تمسح كآبتـه فتحمله الى براري وطنه والى حقول السوسن ، وتمنحه فراشة ونجمة يبل بها ظمأه .. يقول:

لم يبق الا الموت في الاطلال والهياكل
لم يبق الا الشعر في ذاكرة الاحقاب
وبعد الف سنة ستنضج الاعناب
وتمـــلا الاكـواب
ويبعـث المغـنـــي
فآه ثم آه ياصبابتي وحزنـي »

ثم يخاطب الكلمات في «قمر المعـرة» :

« فاستيقظي ياصخرة في الصور، يارمحا
بلاسنان
ياكلمات خضبت بالدم ، يانارا بلا دخان
ولتسكتي ضفادع السلطان
والجيف الموشومـــة
بالناب والجرائد القديمة
ولتضيء البروق ».

وفي ختام القصيدة يقول لنا الشاعر :

«.. اذا اردتـم ، سادتي ، اقــول
ما قاله الشاعر للسلطــان
عبر عصور القهر والهوان
فنحن بركان بلا دخان
وثورة ليس لها اوان
اذا اردتم سادتي ، فلتسكتوا الشاعر
ولتحطموا القيثار ولتوقفوا الانهار
فعصركم مضى الى الابد
ولم تعودوا غير اشباح بلا قبور
والارض ، رغم حقدكم ، تدور
والنور غطى نصفها المهجور »

وقد عبر عن هذه الحقيقة الثائر ارنسطو جيفارا حينما قال (نحن نصنع انسان القرن الواحـــد والعشرين) بل انسان كل العصور، كما يقول البياتي . على ان مهمة الشاعر والثوري عند البياتي لا يمكن ان تتحقق بابداع واعادة وخلق الواقع وتغييره من خـــلال الحاضر فقط، بل لابد لها ان يمتاط ابار الماضي، ويكشف

كهوفه السحرية التي خيم عليها الصمت ، لاضاءتـــه واكتشاف الدلالات المتجددة فيه ، فمهمتها والحالة هذه هي ليست عودة الى الماضي او كما قال الشاعر ذلك في قصيدة «الى البير كامى» :

«.. النهر للمنبع لا يعـود   النهر في غربته يكتسح السدود ».

وقد ادى هذا المفهوم الى ايجاد اسلوب شعري جديد يعتبره البياتي كمحاولة للتوفيق بين ما يمـوت وما لا يموت ، بين المتناهي واللامتناهي ، بين الحاضر وتجاوز الحاضر من خلال معاناة طويلة في البحث عن الاقنعة الفنية (٧) ولقد وجدها في التاريخ والرمـــز والاسطورة ، وكان اختيار بعض شخصيات التاريـخ والاسطورة والموت والانهار وبعض كتب التراث للتعبير من خلال قناع عن المحنة الاجتماعية والكونية مـــن اصعب الامور (٨) .

والقناع هو الاسم الذي يتحدث من خلاله الشاعر نفسه ، متجردا من ذاتيته اي ان الشاعر يعمد الـــى خلق وجود مستقل عن ذاته ، وبذلك يبتعـــد عن حدود الغنائية والرومانسية التي تردى اكثر الشعر العربـي فيها . فالانفعالات الاولى لم تعد شكل القصيـــــدة ومضمونها بل هي الوسيلة الى الخلق الفني المستقل . ان القصيدة في مثل هذه الحالة عالم مستقل عن الشاعر وان كان هو خالقها ـ لا تحمل آثار التشويهـــــات والصرخات والامراض النفسية التي يحفل بها الشعر الذاتي الغنائي .

49 ويوضح البياتي طريقة اختياره فيؤكد على : البحث عن السمات الدالة في الشخصية او الاسطورة ، والربط الموفق بينها وبين ما يريد ان يعبر عنه الشاعر مـــن افكار ،. ويراعي في ذلك ايضا «الحداثة» و «السمـــة المتجددة» التي تحملـهـــا الشخصيـــة التاريخيـــة والاسطورية، فبعض الشخصيات التاريخية والاسطورية لا تصلح موضوعا معاصرا على الاطلاق ، وذلك لانعدام السمة الدالة فيها ومن هنا تنشأ الصعوبة . لذلك لابد للشاعر من قراءة عميقة للتراث من خلال رؤيا علمـــية فلسفية شاملة . ومن خلال هذه الرؤيا الشاملة يتكون مفهوم الشاعر او المفكر عن «البطل» ، وهذه الرؤيـــا الشاملة تختلف من شاعر لاخر وبين مفكـر وآخـر ، فالبطل عند «كارليل» مثلا كما هو عند «هيجل» (٩) صدى للضرورة، فكارليل يقول :

ان الحكمة ليست بان يرضخ الانسان لحكـــم الضرورة ، ذلك ان الضرورة سوف تحمله علـى ذلـك ، ولكن الحكمة هي في ان يدرك الانسان ومن ثم يؤمــن بأن ما تأتي به الضرورة وان كان عابسا ظالما انمــا هو الافضل والاعمق حكمة ودلالة ، بل هو بالذات مـــا ينبغي ان يرجى ويتاق اليه (١٠)

أما البطل عند ماركس فانه يسير في مسار هيجل، ولكنه يبتعد بالضرورة عن الصورة المثالية الهيجلية ، ويرتبط بمفهوم الصراع الطبقي ، وهو بهذا المعنى من صنع الناس البسطاء وبقدر ما يكون تمثل البطل ووعيه،

---

(٨) (٧) تجربتي الشعرية . البياتي

9- The Philosophy of History. Hegel
10 Ou heroes - Hero - Waship and

ومتطلبات الضرورة تكون قدرته ، وطاقته في قيادة حركة التطور وتوجيهها بحيث بدونها لا تتم عملية التحول او الثورة ، وعند سارتر وكامي ، تجد ان البطل يصعب عليه القبول بين المعرفة اللامعقولة ، وبين حاجته الى التبري ، ذلك ان البطل يرتد الى العقيدة : الى الماهية الداخلية ، الى قيمة الانظمة القائمة : الى الانساني او الالاهي . مع المعنى بشكل اضافي ، او ان البطل يستطيع ان يتخذ افعاله وحياته للمعرفة الكاملة اللامعقولة ، ويقبل المسؤولية المتصارعة لاعطاء الوجود معنى ما ، ذلك المعنى الذي يأتي من نفسه ، ومن نفسه فقط .

ان ابطال سارتر وكامي يحبون الحياة ، كما انهم لا يملكون أدنى رغبة في الموت على انهم يفضلون الموت على السقوط ، انهم الابطال الذين يسقطون من مكانة عالية سوداء سواء كانوا اباطرة ام طغاة ، انهم يخضعوف او يعذبون عذابا اخلاقيا اوطبيعيا. وان المصيبة دائما مصحوبة بالمعرفة التي تجعلهم متعالين عما يعترضهم هذا التغير اكثر من تميز الانسان على اساس انه قيمة واحدة وقيمة فقط .

وباختصار فان سارتر وكامي قد وضعا ابطالهما في تجربة العدم ووعي الوجود بدون امل وبدون وهم من اجل اعادة تكامل الحياة ، فنحن نجد «شيريا» في «كاليجولا» .. يعيش داخل الحقيقة بدون امل وبدون وهم غير نظام الانسانية المتصل في ذلك العالم الذي تبدو فيه حقائق الطبيعة والبشرية «معاشة وليست مسيطرة» (١١)

ويلاحظ ان كامي يكثر من استخدام كلمة التاريخ، في سياق كتابه الكبير «المتمرد» ولكنه وان كان لا يرفض التاريخ ولا ينكره فهو على الاقل لا يعفيه من الاتهام : فهو عنده حامل الثورة التاريخية التي تنكرت للتمرد الاصيل حادت عن محجته

والبطل النموذجي عند البياتي يتخطى بنقائه وسموه وثوريته ابطال سارتر ومالرو والبير كامي. انه يسقط في الساحة شهيدا كما حدث مجسدا في موت الثائر العظيم جيفارا ، الذي يعتبره البياتي : الرمز والامل الوحيد الباقي لكادحي ومثقفي العالم المضطهدين (١٢). والذي يعتبره اول نموذج في جيلنا تخطى اسوار الحاضر المتعفن واسوار الامبريالية العالمية التي تقودها الولايات المتحدة الامريكية (١٣). والبطل عند البياتي اذن فنان ثوري وهو تجسيد لارادة الكائنات المتناهية المكبوتة المضطهدة وامتداد لها على مدى التاريخ عبر لحظات التجدد :

---

(١١) « عبد الغفار مكاوي : البير كامي » .

(١٢) (١٣) تجربتي الشعرية . البياتي

« يحوم حول سوره عريان
فاكهة محـرمـة
ومدن بلا ربيع مظلمة
مفتوحـة مستسلمـة
تحيا على الفتـات
مات المغني ، ماتت الغابات
والعندليـب مـات »..

ويقف البياتي امام جيفارا البطل الذي تخـطى بنقائه وسموه وثوريته ابطال سارتر ومالرو وكامي ، الذي سقط في الساحة شهيدا :

«.. لا تجري يافرات حتى اكمل النشيد :
كقدر الاغريق
كالموت كالطاعون كالحريق
محتومة تظهر في السماء
علامة الثورة فوق السم والشرور
فهي عبور من خلال المـوت
وصيحة عبـر جدار الصوت
خطيئة لابد ان تغفر ، ان تعمد الدماء
مسارهـا المحتـوم
تناطح المجهول والمعلوم
وانكسرت صخرة هذا الجبل المشؤوم
عدالة المسيح في التاريخ لن تقوم
موعدها القيامـة
ايتها العلامة
ياقدر التاريخ والمصير الموجود
الموت في الزمان
فـي داخـل الانسـان
يأتي لبعث الجنة المفقودة
في هذه الحياة ..»

وهنا يصل البياتي الى ان الطبيعة (١٤) بالرغم من تآكلها وميكانيكية قوانينها تتفوق على الكائـن المتناهـي ، وانهـا تستطيـع ان تسحقـه وتعيــده الى صدرها ترابا وعظاما نخرة ، ولكـن الكائـن المتناهي بالرغم من كل هدا ، هو الذي يحول احـلام الفنانين والثوريين والفلاسفة الى عمل وواقع اي الى فعـل ، وفي ذلـك سر عظمته . والبياتي يجسـد لنا هذا المعنى فى «خيط الثورة (١٥)» حيث يجمع بين مصارع الثيران الذي يواجه الموت ضاحكا من اعماقه منتظـرا وحيدا ، وبين الذي يبيع في مطار روما «علب الكبريت، وصحف الصباح ، والانهار» بين الذي يعلم الصغـار في الهند «يعلو وجهه اصفرار» وبين الذي يعدم رميـا بالرصاص «عاريا يولد او يموت» .

(١٤) تجربتي الشعرية . ص ٤٢
(١٥) من ديوان «الذي تأتي ولا يأتي»

«... يزرع في الجليد
بنفسجات حبه الجديد
يزور فى اعياده الموتى، يغني الموت في الميلاد
يحمل في ضلوعه بغداد
يمد نحو الوطن البعيد قوس قزح السماء
يجهش في البكاء
يضاجع النساء
يكتب فوق حائط السجن، وفوق جبهة المدينه
اشعاره الحزينه
مناضلا يموت في مدريد
مضرجا بدمه وحيد
تحت قرون الثور أو في ساحة الاعدام
الدم في كل مكان ساخنا يسيل
مرويا هامة هذا الجبل الثقيل
رأيته يمتد من جيل الى جيل كخيط النور
في عالم الفوضى وفي تزاحم الاضداد
والعصور»

ولكن الطبيعة التي تنهي دورة حياة الكائن المتناهي تقف صاغرة منهوكة القوى امام الفنان والثوري ، لما يحملا نه من الخصائص المركبة للكائن المتناهي واللامتناهي . فالفن والثورة عند البياتي انتصار على الطبيعة والحياة واستئثار بهما .

وفي الديوان الثاني للبياتي «اباريق مهشمة» نجد صورتين للبطل ، الاولى : صورة الجواب ، الذي لا يرضى بشيء والثانية صورة بروميثيوس الثائر الذي يبكي ثورته وتضحياته ، ويختلط ـ كما يرى الدكتور احسان عباس ـ بشخصية «سيزيف» رمز الجهد الانساني الضائع . فثمة ضياع اذن وتطلع وثورة ويأس وامل وشوق وحنين تؤلف عناصر الصورة التي يرسمها الشاعر للمنقذ او البطل الذي يحلم به : 52

«.. بالامس كان لنا على القدر انتصار
كان انتصار
واليوم نخجل ان يرانا الليل في ظل الجدار
هذي القفار ، بلا قرار
الليل في اودائها الجرداء ، يفترس النهار
نبقى هنا .. يالَلدمار!
عبثا نحاول ـ ايها الموتى ـ الفرار
من مخلب الوحش العنيد
من وحشة المنفى البعيد
الصخرة الصماء، للوادي، يدحرجها العبيد
«سيزيف» يبعث من جديد ،من جديد
في صورة المنفى المرشيد
ـ ماذا تريد ؟
«الورد لا ينمو مع الدم والحديد»
طلل وبيد
تقضى بقية عمرك المنكود فيها تستعيد
حلما لماض لن يعود ! »

وفي اباريق مهشمة ايضا يتفحص البطل شخصية «الجواب» و «المتمرد» و «الثوري اللامنتمي» ، في قصيدة «مسافر بلا حقائب» نلمح شخصية «الجواب» تعبر عن المحنة الاجتماعية والكونية ، فالجواب ياتي

من لامكان ، لا وجـه ، لا تاريخ له ، من لا مكان» :

« لا وجه ، لا تاريخ .. اسمعها تنادي :
«تعال !»
يلهو بهم عبث الظلال
مستنقع التاريخ والارض الحزينة والرجال
عبـر التـلال ..»

عبـر التـلال
مستنقع التاريخ يعبره الرجال
عـدد الرمـال
والارض مازالت وما زال الرجال

والجواب ، متثائب ، ضجر ، حزين ، تموت النفس في داخله بلا رجاء ، يصدمه الضوء وضوضاء المدينة من بعيـد :

«.. واسير لا اولي على شيء، وآلاف السنين
لا شيء ينتظر المسافر غير حاضره الحزين
ــ وحـل وطيـن ــ
وعيون آلاف الجنادب ، والسنين
وتلوح اسوار المدينة ، اي نفع ارتجيه ؟
من عالم ما زال والامس الكريـه
يحيا وليس يقـول : «ايـه»

ولكن شخصية «الجواب» في هذا الديوان مـا تلبث ان تصل الى مرحلة التمرد ، فيصبح البطل عند البياتي «متمردا» نلمح ذلك في «عشاق في المنفى» :

« ــ وأنا ..
ــ وانت ؟
ــ انا وحيـد !
كقطرة المطر العقيم ، انا وحيد !
ــ .وهؤلاء ؟
ــ مثلي ومثلك يحفرون قبورهم عبر الجدار
مثلي ومثلك مقبلون على انتظار
من لا يعـود
وانا وانت وهؤلاء
كالعنزة الجرباء افردها القطيع..»

وما تلبث شخصية البطل ان تنتقل من شخصيـة «الثوري اللامنتمي» في هذا الديوان الى شخصيـة «الثوري المنتمـي» فـي «المجـد للاطفـال والزيتـون» و «اشعار في المنفى» و «عشرون قصيدة من برليـن» و «كلمات لا تموت ، وفي هذه الدواوين نجد البطل يتجرع العذاب والسجن والموت ، فهو لم يعد ذلك «الجـواب» البائس الذي كان في «ملائكة وشياطيـن» و «اباريـق مهشمة» ولكنه يتحول الى انسان من لحم ودم نعـرف لون عينيه والاسباب التي من اجلها حرم الحياة .. انه مناضل يأبى ان يذعن ويركع وهو يتحدى القدر والاستعمار ويذوق الموت في مقابر الاحياء . في السجون وفـي المعتقلات التي فتحها الحكام الطغاة في البلاد العربية لخنق كل ارادة :

« أنا هنا ، وحدي ، على الصليب
ياكل لحمي ، قاطعوا الطريق والمسوخ،الضباع
ياصانع اللهيب
ياشعبي الحبيب
أنا هنا ، وحدى ، على الصليب
يسطو على بستاني الصغار
ويرجم الكبار
ظلى الذي يبسط كفيه الى النجوم
ليمسح الهموم
عن وجهك الحزين
ياشعبي السجين
يارافع الجبين ...»

و «الثوري المنتمي» الذي يتجرع العذاب في مسيرة نضاله يتمتع بتفاؤل عظيم يدفع المسيرة الى تحقيق الثورة ، فهو يقول «لاخوانه الشعراء» :

« يا اخواني : الحياة
أغنية جميلة ، واجمل الاشياء :
ما هو آت ، ما وراء الليل من ضياء
ومن مسرات ومن هناء
واجمل الغناء :
ما كان من قلوبكم ، ينبع من اعماق
شعوبنا الراسخة الاعراق
وارضنا الطيبة الخضراء
فلتلعنوا الظلام
وصانعي المأساة والآلام ،
ولتمسحوا الدموع
وتوقدوا الشموع ».

و «الثوري المنتمي» يموت «في الظهيرة» تماما كما حدث مع العربي بن مهيدي الزعيم الوطني الجزائري الذي قتله البرابرة الفرنسيون في زنزانته في السجن :

«.. كان في نافذة السجن مع العصفور يحلم
كان مثلي يتألم
كان سرا مغلقا لا يتكلم
كان يعلم
انه لابد هالك
وستبقى بعده الشمس هنالك
في ليالي بعثها ، شمس الجزائر
تلد الثائر في اعقاب ثائر »

والثوري المتنمي ، لايشعر بالذلة امام جلاديه ،رغم شتى ضروب التعذيب ، وهو لا يبدو محطما امام المآسي انه يبدو اقوى من جلاديه :

ذاك الرفيق الاسود العينين ساهد
نزعوا اظافره
وظل طوال ليل الليل صامد
ضربوه حتى الموت
لم ينبس
وظل طوال ليل الليل صامد »

والثوري المنتمي يقهر الموت لفرط ايمانه بالحياة ، وبعدالة الثورة لاسعاد العاملين :

« جلادك المسكين يضحك في غباء
وفي عينيك عصف الكبرياء
قالوا له : عـــذبه
يـاأسود العينيـن
حتى تصبغ الارض الدماء
ياحبـي المخـضب بالدماء »
قالوا لـه :.. مـاذا ؟

والثوري المنتمي مع ذلك لا يسلم ، ويصر على المــوت واقفــا :

«.. لكنك الانســان ،
ستعيش في قلبـي
والانســان قاهـر
وفي شعري الى ابد الادهـار
يـاأسـود العينين
ستعيـش جبارا مغامر »
يـاحبـي المغـامر

وفي دواوين «النار والكلمات» و «سفر الفقر والثورة» و «الذي يأتي ولا يأتي» و «الموتفي الحياة» نجد ان البطل عند البياتي قد اصبح يتمثل في شخصية «الثوري في الثورة المستمرة» :

« الموت في الحيـاة
نوم بلا بعث ولا رقـاد
فلتنفخي ايتها الساحرة ، الرماد
لـعـل شـهـرزاد
تمد من ضريحها يدا الى النبى والشاعر في
الميلاد
لعـل نار ارم العمـاد
تلمع في صحراء هذى المدن المطلية الجدران
بالسواد
لعـل سندبـاد
يشعل في صيحته جزائر الهند وأرخبيـل
بحر الروم
يحمل في مركبه للامم المغلوية البشاره
وعشبـه وناره
الى الذين دفنوا احياء في المغارة
وقاتلوا مع الملايين التي تئن في اغلالها ،
ووقعوا في الاسر
واعدموا في الفجر
وهم يغنون اغاني النصر »

ان البياتي خلال رحلته الشعرية الطويلة منــذديوانه الاول حتى ديوانه الاخير كان يبحث عن البطل الاسطوري ـ التاريخي الذي يحول القش والطيـــن المقدس بحركة من يده الى لهب .. الى ثورة .. ، بل انه يحلم وهو يبحث ، ان يتحول «هذا الزحام الهائل نفسه الى هذا البطل الاسطوري التاريخي (١٦ » ، هـــذا

(١٦) تجربتي الشعريـة . ص ٤٥

البحث عن البطل الاسطوري هو الذي قاده اذن الـــى ايجاد الاسلوب الشعري الجديد الذي عبر به للتوفيق بين ما يموت وما لا يموت ــ كما سبقت الاشارة ــ بين المتناهي واللامتناهي ، بين الحاضر وتجاوز الحاضر وهي طريقة الاقنعة الفنية التي وجدها في التاريـــخ والرمز والاسطورة من خلال رؤيا علمية فلسفية شاملة.

ومن هنا فان اختيار الشاعر لشخصية الحــلاج والعربي والخيام وديك الجن وطرفة بن العبد وابي فراس الحمداني والمتنبي والاسكندر المقدوني اوجيفارا وهملت وبيكاسو وهمنجواى ومالك حداد وجوار سليـــم والبيركامي وناظم حكمت وعبد الله كوران وعائشة وارم ذات العماد ووضاح اليمن ومحي الدين بن عربي وكتاب الف ليلة وليلة وبابل والفرات ودمشـــق ونيسابـــور ومدريد وغرناطة وقرطبة وتهامة وغيرها ، كان اختيار هذه الشخصيات من جانب الشاعر لتقديم «البطــل النموذجي» في عصرنا هذا وفي كل العصور في (موقفه النهائي وهو يستبطن مشاعر هذه الشخصيات النموذجية في اعمق حالات وجودها ، لعبر عن المحنـــة الاجتماعية والكونية التي واجهها هؤلاء .

فقد رأينا من قبل كيف كانت شخصية الحـــلاج عند البياتي الى جانب كونها شخصية المناضل الجريء الذي يصفع وجه السلطان بأفكاره ، وشخصية الانسان الذي يستطيع ان يحل في رواح الجماهير فيحرك فيها كل ما تنطوي عليه من نوازع التمرد والثورة ، والبياتـي بذلك يريد ان يذهب الى ان الفنان الثوري هو خالـــق الثورة وصانعها بينما السياسي المحترف لصها وقاتلها وهو الامر الذي تصوره بوضوح قصيدة «تسع رباعيات» في ديوان «الذي يأتي ولا يأتي» . فهنا نرى بتحـديـد كيف ان السايسي المحتـرف هو الوجه الوجه الاخـــر للثوري المرتد :

« باع المسيح دمه للملك الحمـار
وانهـــزم الثوار
وغرق العالم بالاوحال
وسقطت اقنعة المهرجين في وحول العار
الساسة المحترفون ينجرون خشب الثابوت
وأنت في الغربة لا تحيا ولا تموت
منتظرا محـروب
تطمرك الثلوج والنجوم والياقوت »

واختيار البياتي لشخصية الخيام كواحد مـــن الذين دافعوا بنبل عن الحرية في تاريخ البشرية ، يرجع الى ان هذه الشخصية تتميز بخصاءص ثورية معينـة، تشترك في معظمها مع شخصية ابي العلاء ومع شخصية الحلاج في الكثير منها كذلك، بجمعهم جميعا انهـــم عاشوا ابطالا مغتربين في عصرهم وفي صراعهم كذلك مع السلطة الزمنية :

«ولدت في جحيـم نيسابرو
قتلت نفسي مرتين ، ضاع مني الخيـط
والعصفـــور
بثمن الخبز، اشتريت زنبقـا ،
بثمـــن الدواء
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة
لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة
نمت على الارصفة الغبراء
اصطدت الفراشات وقعت في شراك النور
وسحب الخريف والغابات والزهور ».

وما تلبث السلطة الزمنية والساسة المحترفون، لصوص الثورة وقاتلوها ان يجعلوا الثوري يبحث عن شعاع ضوء لانهم جعلوا «الليل في كل مكان» يصــور البياتي ذلك كله من خلال مأساة الخيام :

«.. الليل في كل مكان ، وانا انتظر الاشارة
ـ وددت لو اغرقت هذا المركـب المليء
بالجردان
وهذه المدينة المومسة الشمطاء
لو علق الشاعر هذا الببغاء الاعـــور
السكران
من ذيله ، بالكلمات ، والدمى الصلعاء
ـ الساسة الحترفون ورجال المال والملوك
سادة هذا العالم المنهوك
وانت سيد بلا مملوك
عليك مكتوب ، بان تحوم حول السور
تلتقط الفتات والقشور
تجوب هذا العالم ـ الماخور
منسحقا مقرور..»

اما قصيدة «موت المتنبي» في «النار والكلمات» فهي ـ كما يقول البياتي في تجربته الشعرية ـ قصيدة يغلب عليها الاسلوب القصصي لانه لم يبين فيها قنـاع المتنبي ، ولكنه صور فيها قصة حياته الفاجعة ، بطريقة درامية وتأثرية ، اي انه لم يتبن فيها مواقف المتنبـي كما فعل مع الحلاج والمعري والخيام ، ولم يتكلم من خلال شخصيته كما فعل في الاقنعة الاخـرى .

وفكرة هذه القصيدة هي فكرة الصراع الابـدي بين الفنان وما يملكه من طاقات هائلة علـى الخلـق والابداع ، والسلطة الزمنية الغاشمـة ـ وما تملكـه من اساليب البطش والخداع والمكر ، هذا الصراع الذي ينتهي بموت الفنان الفاجع ، ولكن موته ، لا يعني هنا ان دوره قد انتهى على مدى التاريخ ، ولكن الموت يعني الولادة الحقيقية على مدى التاريخ. 57

يستهل الشاعر قصيدة «موت المتنبي» بتصويـر «اللعنة الاولى« :

« لتحترق نوافذ المدينه
ولتذبل الحروف والاوراد
ولتأكل الضباع هذي الجيف اللعينة
وليحتضر نسرك فوق جبل الرماد
فأنت بحار بلا سفينـة
وانت منفي بلا مدينـة
صليبك الغراب في المقاطع الحزينة
ينعـــب
يبني عشـــه ،
يموت في طاحونـــه
ياصوت جيل مزقت راياته الهزيمه
ياعالما عاث به التجار والساسة ، ياقصائد
الطفولة اليتيمة »

ويجسد الشاعر مأساة المتنبي وعجزه عن تحقيق رغباته وطموحه ومثله العليا من خلال اصوات اربعـة، في «الصوت الاول» يدور الحوار بين العقل الواعــي المفكر وبين الذات الدفينة المختبئة في بواطن النفس :

« سفينة الضباب ياطفولتي ،
تطفو على بحر من الدموع
تشيخ في مرفأهـا
تجــوع
تزني على رصيفهم
تستعطف الخليفة الابلة
تستجـدى..»

وفي «الصوت الثاني» نستمع الى شطر الحوار الذي يعيشه المتنبي :

« الرخ مـــات
بيضة تعفنت في طبق الخليفة
الرخ صار جيفـــه
في طبق من ذهب ـ يازبد البحار
وياخيـــول النار
توثبي واقتحمي الاسوار
ومزقي الشاعر والدينار
ولياكل الخليفة الاوراق والمغبار
ولتسلم الاشعـار

وما يلبث طرف اخر ان يشترك في الحوار الباطني للشاعر في «الصوت الثالث» وهو في الحقيقة تجسيد لفكرة الصراع الابدي بين الفنان والسلطة الزمنية :

« كافور كان سيد الخليقـة
والشمس والحقيقـه »

58

وهنايعود الشاعر الى «الصوت الاول» حيث يجد ذاته الحقيقية من وراء الالام الزمنية، من خلال وضع طاقاته الفنية الهائلة في مواجهة هذه التحديات :

« السيف كان ريشتي
وراية الفجيعه
هممت ان اكسره
هممت ان ابيعه
أرانب هم الملوك ، حجر السقوط ،
رؤيا عصرنا الشنيعـه »

وفي «الصوت الرابع» تكشف السلطة الزمنية عن وجهها الكاذب وخداعها وما تملك من اساليب فـي البطش والمكـــر :

«انا شججت جبهة الشاعر بالدواه
بصقت في عيونـــه
سرقت منها النور والحيـــاه
أغمدت في اشعاره سيفي
وافسدت مريديه ، وضللت به الرواه
جعلته سخرية البلاط والفرسان والاشباه»

ويرتفع رويدا رويدا «الصوت الثاني» ليصـور الشاعر بين انياب هذه السلطة ، غارقا في احزانـــه واغلاله ، عائدا من غربته ممزقا جريحا :

«ماذا تقول الريح ؟
لشـاعــر الشريــد
في وطـن العبيــد
والساسة واللصوص والتجار والانذال
يمرغون القمر الاخضر في الاوحال

ثم ينتهي هذا الصراع بموت الشاعر الفاجــع ،ولكن موته لا يعني ان دوره قد انتهى على مدى التاريخ فالموت يعني الولادة الحقيقية على مدى التــاريــخ ،وهاهو المتنبي «بعد الف سنة» :

«.. عيونه الطينية السوداء
تسبر غور الجرح في السماء
حصانه يصهـل في المســاء
على تخوم المدن الغبــراء
يرود نبع الماء .
حصانه عبر المراعي الخضر والتلال
يوقظ في حافره النجوم والاطفال
يوقظ في ذاكرة السنين
اللهب الاسود والحب الذي يموت في ظل
السيوف
عاصفا مدمرا حزين .»

ذلك اذن هو نضال الشاعر من اجل العودة بالشعر الى وظيفته الحقيقية كعنصر ثوري خلاق ، وان هــذه الرؤيا الجديدة التي غطت الخارطة البيضاء التي كــان يقف عليها الشاعر ، عادت «لتؤكـد قيمة الانســان ـ الشاعر خالقا وسيدا لمصيره» . لقد اتحد الرمز الذاتي بالرمز الجماعي ، وبذلك قضى على الثنائية التي كانت كامنة بين شكل القصيدة ومضمونها ف اصبحت القصيدة ـ على حد تعبير البياتي ـ لاول مرة انصهارا داخليا ونزيفا ونسفاحيا .

ومن هنا نجد ان الحديث على الالتزام يبدو ثرثرة ولغوا باطلا عند الحديث عن انصاف الشعراء والاقزام وغير الموهوبين او كما يؤكد البياتي في احاديث ادبية كثيرة ان موضوع الالتزام اصبح موضوعا مملا وشكليا اكثر مما هو جوهري : «فالفنان ملتزم بطبيعته بهـذا الشكل او ذلك ، وقد شاع خطأ في اذهان البــعـض ان الالتزام يعني الالتزام الحزبي او المذهبي بهذا الرأي او ذلك .

ان مفهوم الالتزام عند البياتي يتسع ليشمل جوهر الفلسفات والقيم الانسانية النبيلة والافكار التي تدافع عن الانسان ضد التشويه الخلقي والاجتماعي والسياسي وهو لسان الانسانية المعبر وليس صناجة هذه القبيلـة او تلـــك .

ذلك هو مفهوم الشعر كما حدده ورسم خطوطـه وطريقه عبد الوهاب البياتي : الشعر سلاح لامريء ، والشاعر الثوري يعيش في الابداع التاريخي ، لذلـك فهو ضد التجريد والعلوية الصوفية والمثالية المبتذلة :

سأدوس في قدمي
دعاة «الفن (١٧)» والمتحذلقين
وعجائز الشعراء
والمتسوليـن
واحطم الاشعار فوق رؤوسهم
فـدم الحيـاة
يجري باعراقي
واني لن اخون
قضية الانسان اني لن اخون
فلتذهبي ياربة الشعر الكذوب الى الجحيم

---

(١٧) يقصد دعاة «الفن للفن»

فأنا هنا استلهم الاشعار من حبي العظيم »

وعن «الشعر والثورة» يقول مواصلا حربـــــه ضد العلوية والمثالية المتبذلة والدعوات الكاذبة فـــي الشعـــر :

«الشعر اعذبه الكذوب»
قـــالوا :
وما صـدقـــوا
لانهمو تنابلة وعور
كانوا حذاء للسلاطين الغزاة
بـــلا قلوب

ياشعر حطم هذه الاوثان
واقتحم الخطوب
وتعال نرتاد البحـــار
ونجتلي نجم الشعوب
انا ذاهب كي اقرع الاجراس
كي اطأ اللهيب »

ان الشعر عند البياتي يتمرد على مصطلحـــات التقويم الكاذب ، ويرفض التقسيم المناخي الجغـــرافي لخارطة الانسان الروحية ، كما يرفض تقسيم التاريخ الى متوالية عددية :

شعري جواد جامح، يعدو بفارسه الحزين
نحو الينابيع البعيدة
في الجبـــال
بفارس الامل الحزين
ماذا على الشعراء لو قطعوا يد المتطفلين؟
وأشعلوا نار الحنين

في ليل عالمنا ..
يـــاقلب لا تهـــرم !
فان امامنا حبا عظيـــم
حبي للاطفال ، لشعبـــي
للحروف الخضـــر
لا تهرم ! فان امامنا حبا عظيم .»



مراسلات

حـــول اضـراب عمـــال ميبــلادن

في ١٣ غشت ١٩٧١ شن عمال معادن ميبــلادن اضرابا عاما للدفاع عن حقوقهم التي كانت تدوسهــا بوحشية شركة بناروايا ، هذه الشركة التابعة لبنــك باريس ، وبنك هولاندا وبنك روتشيلد .

وغير خاف على أحد الاستغلال الذي تمارســـه الابناك الامبريالية في بلادنا . اما بنك روتشلد ، فانها تخدم بالاساس مصالح الصهيونية ، مصالح اشرس اعداء الشعوب العربية . ويقع منجم ميبلادن هذا فــي ناحية ميدلت بالاطلس المتوسط على بعد ١٠ كلمترات من مناجم احولي ، ويستخرج منه الزنك ومعــــــدن الرصاص .

ولحد الان يتم استغلال المنجمين (احولـــــي وميبلادن) بشكل منظم . فالشركة تستثمر المراكـــز الرئيسية وتترك مراكز ثانوية ومتشتتة لوكلاء مغاربة.

وعدد العمال الدائمين قليل . ويتمتعـون ببعض «الحقوق» بالنسبة لافواج المستأجرين باليوم وحتــى بالساعة ، هؤلاء المستأجرين الذين يتجهون كل يوم الى مراكز الشركة بحثا عن ساعة عمل .

اما عمال المراكز الثانوية ، فهم لا يتمتعون بــأي حقوق (ضمان اجتماعي الخ) خصوصا وان اغلبيـــــة الوكلاء المغاربة اما اقطاعيون محليون ، واما مـــن رجالات السلطة . ويلاحـظ من بين المستغليـن بعـض النقابيين الذين ادت بهم انتهازيتهم الى خيانة الطبقـة العاملة .

وتستغل شركة بناروايا بنسبة ١٠٠٪ معادن «بني تادجيت» مستعملة في ذلك عددا من الوكلاء السماسرة.

وقد قررت الشركة في شهر غشت التخلي عـــن منجم ميبلادن لبعض الوكلاء . وبناء على هذا حاولت ان تنقل العمال من ميبلادن الى احولي غيــر ان عمال ميبلادن رفضوا ذلك الاجراء وشنوا اضرابهم العام بعد محاولات عديدة لايجاد حل بالتفاوض والحوار «المجدي» مع الادارة .

وقد شن عمال احولي اضرابا دام يومين تضامنا مع اخوانهم بميبلادن .

ونلاحظ باسف شديد ان المسؤولين عن النقابـة العمالية الاتحاد المغربي للشغل لم يقوموا باية حملة نقابية لتوطيد الاضراب وانجاحه . ويجب تجاوز هـذا العجز لانه يمس بالنقابة الوحيدة الممثلة للطبقة العاملة المغربية ، هذه الطبقة التي خلقت الاتحاد المغربــي للشغل وسط النضالات القوية التي خيـضت ما قبـــل الاستقلال لطرد الاستعمار الفرنسي .
وان من واجب كل نقابة تقدمية ان تدعم النضـــالات التقدمية كنضال عمال ميبلادن .

ا. هـ. الدار البيضاء

بريد القراء

نقــد بنــاء واقتراحــات جــادة

اكتب اليكم لابدي بعض الملاحظات حول «انفاس» هذه الملاحظات وان كانت شكلية ، الا انـها ستدفـع «بانفاس» خطوة الى الامام في طريق تحقيق الهدف الذي انشئت من اجله .

ان ما نريد من انفاس هو ان تعمل اكثر على خدمة الثقافة الجماهيرية والفكر الثوري التقدمي ، ومحاربة الفكر الامبريالي الرجعي بكل اشكاله والوانه ، هــذا الفكر الذي يجد تربته الخصبة في عدد من المثقفيـن البورجوازيين ، وكذلك اشباه المثقفين الذين يخدمــون بكل قواهم الفكر الامبريالي ، مقابل ما يقدم لهم مـن امتيازات مادية وأدبيـة كمانريـد منهــا ان تكــون مفتوحة في وجه جميع التقدميين المغاربة الملتزميـن بالفكر العلمي .

ان «انفاس» هذا المشروع الصغير الذي نريده ان يتجاوز مرحلة الطفولة بسرعة ، ولكي يكبر نتمنى ان يستقطب حوله كل المناضلين من اجل خلق ثقافــة جماهيرية ثورية ، كل المناضلين ضد القمـع الثقافـي والسياسي والاجتماعي ،

ان تاريخ بلادنا غني بكثير من المواقف التي يجب اغناؤها والبحث عنها للعناية بها .. 62

ان «انفاس» يجب ان تعنى بالدراسات التي لها صلة بتاريخ بلادنا ، هذا التاريخ الذي تعرض للتشويه على يد خدام الاقطاع ، والبورجوازيين المرتبطين بالنظام بلكثر من صلة ، ومسؤولية انقاذ تاريخ بلادنا من هذا التشويه تقع على هاتق المثقفين التقدميين وبالخصوص الملتفين حول «انفاس» .

بعض الاقتراحات والمــلاحظات :

اقترح ان تكون للدراسات التي تنشر اكثر مـن صلة بالواقع المغربي ، كما اقترح ان ينشر في ركـن حركات التحرر الوطني ، التجارب الكفاحية لاشقائنا الابطال في جنوب الفييتنام . نشر دراسات ووثائــق لجبهة تحرير جنوب الفييتنام ، وكذلك نشر بعــض اعمال المناضل الراحل هوشي منه . كما يجب العناية بحركات التحرير الافريقية : ارتيريا موزمبق غينيــا بيساو ، والعناية في نفس الوقت بحركات التحرر في جنوب شرق آسيا تايلندة ، اندونيسيا ، الهند ، الخ... وامريكا اللاتينية . نضال توباماروس ، في الاورغواي والارجنتين ، الخ..) وفي الشرق الاوسط نضال الشباب الايراني ، نضال الشباب التركي ضــد الديكتاثورية العسكرية ، وضد القواعد الامريكية .

وفي اوربا العناية بتجارب المناضلين ضد الفاشية الفرنكوية في اسبانيا ونضال الشعب اليوناني ضـد الديكتاثورية العسكرية الخ...

لي ملاحظة على الوثائق التي تنشر : فرغم بساطة هذه الملاحظة ارى ان تلافيها في المستقبل سيكون مهما ومفيدا .

فالوثيقة المنشورة في العدد (٢) والمتعلقة بظفار والتي اصدرتها الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي

المحتل لم يقدم لها بأي شيء ، كأن جميع القراء بـــلا استثناء يعرفون اين تقع ظفار ، ويعرفون ما هي الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل ؛ ان مقدمـــــة تعريفية للوثائق المنشورة ستكون مفيدة اكثر للقراء .

اما في الركن الايديولوجي ، فأقترح ان تنشـر اعمال كبار الثوريين مثل البيان الشيوعي ـ ما العمل ـ الدولة والثورة ـ لينين تقرير عن حركة الفلاحين فـي خونان ـ الديمقراطية الجديدة ، ماوتسي تونغ ، الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى في الصين الخ ..

وفي ركن المكتبات أرى انه يجب ان تنـقد الكتـب التي لها صلة ببلادنا والتي يصدرها امـا مغاربـة او اجانب ، واقترح ان يبدأ بنقد اعمال عبد الله العروى «الايديولوجية العربية المعاصرة» «تاريـخ المغـــرب العربي» بما للعروى من تأثير في اوساط الطلبة : هذه الملاحظات املاها علي تحمسي لمجلة «انفاس» وثقتي في كل العاملين من اجل ان تتطور مجلتنا اكثـر .

فوزي عبد الحق :الدار البيضاء

رسالة تضـامـن مـن :

الى الاخوة اعضاء مجلة «انفاس»

اعلن لكم تضامني ضد الحجز التعسفي الـــذي تعرضت له مجلة «انفاس» (العدد ٣ـ٤) ، استنكـــر الاضطهاد الذي يمارسه الحكم على الرأي والصحافـة التقدمية .

عبد الجبار السحيمي ادريس الخوري ـ الرباط

تحيـــة نضـالية :

تحية نضالية وبعد فأكتب اليكم لكي احييكم في المسيرة التي تقطعها الطلائع المغربية الواعية والممثلة في جماعة «انفاس» . ان العالم العربي يحبل في هـذه الايام بمولود جديد ليس كسابقيه وان العاملين بانفاس يعتبرون امتدادا لهذا الخط . اننا معكم

انور المتجي ـ القصر الكبيـر

من البحرين تحية الشاعر المناضل قاسم حـداد

تحية صديقة من الخليـج :

في الواقع هنا ان الشباب استقبلوا «انفـــاس» بحماس وفرح ، لاننا جميعا ننتظر حديثا من القلـــب والعقل من عندكم . وجاءت «انفاس» تحمل لنا ما نريد.

سوف احاول قدر الامكان ان ابعث لكم ما يتوفر من مواد صالحة للنشر .

(خاصة لباب وثـائق) .

حين تختلط انفاس الشرارة التي تحرق السهل هنا **بانفاسكم** ، نشعر بالقوة .. اليس كذلك .

تحياتي وتحيات الاخوة الشباب

قاسم حداد ـ البحـرين

● خطوة متواضعة على طريق مجهود نظري كبير مطروح كمسؤولية ملحة على كل مثقف متشبع بروح تقدمية وثابة نحو ثقافة جديدة ٠

● خطوة على طريق فك الحصار الثقافي الامبريالي ـ الرجعي وصد الهجوم الكثيف الذي تمارسه قوى الاستغلال والتضليل بدون هوادة ٠

● مبادرة تدعو لفتح النقاش الجدي والمجدي بين المثقفين العرب حول القضايا العربية الجسيمة في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الوطن العربي ٠

● مجهود مخلص يرمي الى اخصاب الفكر التقدمي المغربي ، وطرح القضايا الاساسية لبلادنا على بساط الدرس والتحليل ، وازاحة هيمنة الفكر البرجوازي على الساحة الوطنية ٠

ذلك ما تصبو اليه مجلة «انفاس» بطموح كبير وتواضع اكبر ٠

ـ فمن أجل دعم الثورة الفلسطينية والتعريف بقضاياها الحيوية بمنظار تقدمي علمي ،

ـ ومن أجل توضيح الرؤية حول قضية تحرير الامة العربية وحول حركة التحرير العالمية عامة بكل مسؤولية وصراحة ،

ومن أجل ملء الفراغ الكبير في حقل الثقافة التقدمية ببلادنا ،

ومن أجل ثقافة جديدة وفكر ملتزم ،

ننادي كل المثقفين الواعين الغيورين لمساندة « انفاس » والمساهمة في مجهودها بابحاثهم وانتقاداتهم ،

وننادي كل الشباب الواعي المتطلع لفكر جديد ليتتبع باطراد مجلة « انفاس » ويدعمها بآرائه وانتقاداته ٠

Imp. TOUMI -- RABAT